(حب الكتاب) في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع : دراسة موضوعاتية

د.إبراهيم بن محمد أبانمي
قسم الأدب - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(حب الكتاب) في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع
دراسة موضوعاتية

د.إبراهيم بن محمد أبانمي
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تميّز الشعر في العصر العباسي بكثرة موضوعاته، وابتعاد كثير منها عن الأغراض المرتبطة بالبلاط، ذات المقاصد المادية، ومن هنا اتسع، وتشعّبت معانيه، وصار يتناول الحياة بتفاصيلها مهما دقّت أو جلّت، ولقد كان لحركة الكتابة الضخمة والتدوين وجمع المجاميع الأدبية ولتطور الإحساس بالحياة المدنية أثرٌ مهم في استنبات تلك النصوص وحفظها، وإننا إذا قرنّا هذه الحركة الشعرية الكبرى مع الحركة التأليفية التي رعت ذلك الشعر وأنمته ووعته، لم نستبعد أن يقال الشعر في الكتاب !.

ولقد عمدت في هذا البحث إلى موضِع شعري هو (الكتاب) الذي قيلت فيه نصوص متباينة الأغراض والمعاني، وصببتُ جهدي خاصة على تتبّع (ثيمة theme) حب الكتاب، المنسربة داخل النصوص المتنوّعة، متبعا في ذلك المنهج الموضوعاتي، لافتاً النظر إلى أهمية (الكتاب) الوجدانية عند العرب، وما يدل عليه هذا من رفعة حضارية . وختمت البحث مصدّقاً ما افترضته قبل البحث من أن عامة الشعر المقول في الكتاب على اختلاف موضوعاته إنما انبعث من عاطفة الحب، ففشت فيه ثيمة (الحب)، وظهرت لأداء معانٍ لا يتوقّع ظهورها فيها.

تميّز الشعر في العصر العباسي بكثرة موضوعاته، وابتعاد كثير منها عن الأغراض المرتبطة بالبلاط، ذات المقاصد المادية، ومن هنا اتسع، وتشعّبت معانيه، وصار يتناول الحياة بتفاصيلها مهما دقّت أو جلّت، ولقد كان لحركة الكتابة الضخمة والتدوين وجمع المجاميع الأدبية أثرٌ مهم في استنبات تلك النصوص وحفظها، وإننا إذا قرنّا هذه الحركة الشعرية الكبرى مع الحركة التأليفية التي رعت ذلك الشعر وأنمته ووعته؛ لم نستبعد أن تُبدَع الأشعار في الكتابِ ! مصدرِ الشعر ومآلِه !، فإذا فتشنا في الأغراض المشتهرة في الشعر العربي مدحا وهجاء ورثاء وغزلا ووصفا، سنجد أن أكثر ما يقال في الكتاب - على اختلاف بواعثه ومعانيه ومقاصده - يدرجه النقاد تحت غرض الوصف، دون ضابط يميز بين البواعث المتنافرة، والمعاني المختلفة، والمقاصد المتباينة، ودون تنبّه إلى ما فطن له ابن رشيق القيرواني من أن" الشعر - إلا أقله - راجع إلى باب الوصف"[1]، وسنجد أيضا أن الاهتمام النقدي بالشعر المقول في الكتب وما شابهها من مواضع القول ليس كبيرا، إذ هي في هامش الشعر العربي وفق النظرية الأغراضية للشعر، التي تصب اهتمامها على ما يدور في البلاطِ، محافلِهِ، أو أسمارِه، ولا تتناول ما عداه إلا تحلّة القسم.

ومما سبق أقول: لقد عمدت في هذا البحث إلى موضِع شعري هو (الكتاب) الذي قيلت فيه نصوص متباينة الأغراض والمعاني، وصببتُ جهدي خاصة على تتبّع (ثيمة theme) حب الكتاب، المنسربة داخل النصوص المتنوّعة، متبعا في ذلك المنهج الموضوعاتي، لافتاً النظر إلى أهمية (الكتاب) الوجدانية عند العرب، وما يدل عليه هذا من رفعة حضارية.

ولقد سعيت جاهدا – قبل البحث – إلى تتبّع من وقف على هذا الموضوع الشعري من المعاصرين، فخرجت من ذاك بما يبهج، إذ التفت إليه غير واحد التفاتاً يدلّ على

---

(١)ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: د.النبوي عبدالواحد شعلان، مكتبة الخانجي ،القاهرة ، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٠٩٦/٢.

استمرار تلك الروح المتوراثة المشبوبة بحب الكتاب، التي تتنبّه إذا وقعت على ما قيل فيه، فتجمع أشباهه ونظائره، ثم تخرجه للناس مجموعاً، ومن تلك الدراسات:

١. (الكتاب في الحضارة الإسلامية لعبدالله الحبشي)[١].

٢. (الكتاب في الحضارة الإسلامية للدكتور يحيى وهيب الجبوري)[٢].

٣ ـ (قالوا في الكتاب للدكتور هاشم فرحات والدكتور محمود سيد محمود يوسف)[٣].

٤. (عشاق الكتب لعبدالرحمن يوسف الفرحان)[٤].

٥ ـ (آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي لمحمد خير رمضان يوسف)[٥].

كما أُلِّفت في الكتاب كتب لا تمس موضوع هذا البحث مباشرة، مثل: (الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة للدكتور محمد كمال الدين عز الدين)[٦] و (حرق الكتب في التراث العربي لناصر الحزيمي)[٧] و(بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية للدكتور يحيى وهيب الجبوري)[٨]، و(تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام لمحمد عبدالجواد الأصمعي)[٩]، و(علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت

---

(١) عبدالله الحبشي، الكتاب في الحضارة الإسلامية، شركة الربيعان للنشر، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

(٢) د.يحيى وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

(٣) د. هاشم فرحات و د.محمود سيد محمود يوسف، قالوا في الكتاب، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٣هـ.

(٤) عبدالرحمن يوسف الفرحان، عشاق الكتب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ

(٥) محمد خير رمضان يوسف، آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

(٦) د.محمد كمال الدين عز الدين، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

(٧) ناصر الحزيمي، حرق الكتب في التراث العربي، دار الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠٠٣م.

(٨) د.يحيى وهيب الجبوري، بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

(٩) محمد عبدالجواد الأصمعي، تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب في العصور الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

أو محيت لأحمد الباتلي)[1]، و(مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي لخالد الشنو)[2].

وبعدُ، فإن أبرز ما يتميز به هذا الجهد الذي بين يديك عن كل تلك الجهود السابقة أنني أخلصت في جمع النصوص المقولة على الشعر دون النثر، وعلى المقول في (الكتاب) فحسب دون أدوات الكتابة والعلم ؛ إذ إني رأيت القول في الكتاب مختلفا عن القول في أدوات العلم بعامة اختلافا جعل الكتاب عند بعضهم ذاتاً معشوقةً متخلقةً خلقاً شعرياً، فالشاعر يحب الكتاب كما هو بورقه وجلده ورائحته، بله ما فيه من علم، وأنه وسيلة العلم، ولعل قصر النظر على الكتاب وحده أنجع عند استخلاص النتائج، وبناء الصورة الشعرية المتخيلة آنذاك للكتاب، ولو توسّعت في الدرس إلى أدوات العلم كلها (الورق والمحبرة والقلم...) لتحوّل البحث إلى العلم وأدواته وصناعته ـ وإنما أردت الكتاب بخاصة ـ واختلّ الهدف الذي سعيت إليه.

كما أنني اقتصرت على القرون الأولى إلى نهاية القرن السابع دون ما بعدها من القرون ؛ إذ إن هدفي هو النظر إلى المكانة الروحية للكتاب في أوج الحضارة الإسلامية، وأوج التأليف فيها، وذروة الإجادة الشعريّة قديما، ولم أقف عند سقوط الدولة العباسية (٦٥٦هـ) لأني أرى أن هذا التحديد لا يكاد ينضبط أدبيا لأمور عدة ليس هذا محل بسطها[3]، على أني في استشهادي فيما يليك لم أكد أخرج عن هذا التاريخ (٦٥٦هـ)، ولكني أرى أن تحديد بداية الدراسة ونهايتها برؤوس القرون أضبط في الدرس الأدبي.

---

(١) د.أحمد بن عبدالله الباتلي، علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت: لطائف وأخبار، دار طويق، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٢) خالد بن عبدالرحمن الشنو، مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ.

(٣) أوجزها إيجازا شديدا بقولي: إن هذا البحث ليس مرتبطا بشعراء الدولة العباسية، ولا برقعتها الجغرافية غير الثابتة على مدى القرون، التي تقلّصت في شطرها الثاني حتى صارت في العراق فحسب، بل في أجزاء منه.

كما أنني استقصيت في الجمع استقصاء لم أُسبَق إليه ـ فيما أعلم ـ إذ إن أوسع تلك الكتب التي سبقتني جمعاً هو (قالوا في الكتاب)، ووجدت أنني أشترك معه في نحو ثلاثمئة بيت[1]، وأفوقه بنحو الثمانمئة بيت، وهذه الأبيات المئة والألف قيلت كلها في القرن السابع وما قبله، وإن أثر ذلك الفارق سيظهر في الدراسة وإن لم أستطع إيراد كل تلك الأبيات في هذا البحث، وعلى سبيل المثال: لم أجد أحدا ممن سبقني – فيما اطلعت عليه – يشير إلى الشعر المقول في (أعيان الكتب)، وقد وقعت من ذلك على ثلاثة وسبعين ومئة بيت ! وهي مادة أدبية أفدت منها وأوردت بعضها فيما يليك، وإن سعة المجموع يظهر أثرها في البحث وإن لم يثبت المجموع كله، وسأجتهد في التحشية أن أثبت بعض مواضع الأشباه والنظائر للأبيات الممتَّنة ؛ ليسهل على طلبة العلم الرجوع إليها، وسوف أثبت هذا المجموع كاملا بإذن الله حال تحويل هذا البحث الموجز إلى كتاب. ولست أنكر أنني أفدت من كل من سبقني نصوصاً لم أحط بها أول مرة، فكان جهدي ـ في الجمع ـ متمّما لجهودهم، وأثني عليهم وأشكرهم هنا.

كما يختلف جهدي أيضا باتباعي منهجا نقديا أدبيا في دراسة الموضوعات والأغراض، على خلاف من سبقني ممن اعتنوا بجمع الآثار والأخبار والأشعار جمعا دون دراسة.

وتبيّن لي بعدما أنهيت الجمع، وأعدت قراءة المجموع مرة بعد أخرى اشتراك عامة النصوص –مهما اختلفت أغراضها وموضوعاتها– في موضوع /ثيمة (الحب)، فينسرب فيها تبعا لذلك معجمان شعريان، وفضاءان تصويريان مرتبطان بذلك الموضوع هما: (العشق) و(الصداقة والمنادمة)، وعليه فإني أقمت العمل فيما يليك على مستويين:

---

(١) أشير إلى أنني نبذت مئات الأبيات مما أورده ؛ لعدم دخولها في الفترة المدروسة، أو الموضوع الذي اقتصرت عليه.

أولهما: تصنيف الموضوعات الشعرية المقولة في الكتاب، وقد بلغ ما صنفته من أبيات نحو مئة وألف بيت أغلبها من النتف والمقطوعات، واخترت منها نماذج للاستشهاد، ونظائر في الحاشية.

وثانيهما: تحليل الأبيات المستشهد بها تحليلا معجميّاً وتخييليّا، يكشف دلالاتها المحيلة على فضاءي (العشق) و (الصداقة والمنادمة)، وهما فضاءان عائدان إلى موضوع/ثيمة (الحب)، وقد ارتبطا بعامة موضوعات القول في الكتاب.

وسأقسم موضوعات الشعر فيما يليك قسمين: الموضوعات العامة التي يشترك فيها الكتاب مع غيره مصوغة في قالب غرضي كالمدح والرثاء، والموضوعات الخاصة بالكتاب التي ينفرد الكتاب بالشعر فيها كالإعارة، ووصف المكتبات.

وأشير إلى أنني أعد هذه الدراسة (موضوعاتية) لا لأجل تصنيف الموضوعات الشعرية فيها، فذلك التصنيف لا يصيّر الدراسة (موضوعاتية)!، بل لأنني تتبعت موضوعا واحدا يشكّل ثيمة (theme) مشتركة بين عامة النصوص المقولة في الكتاب، تظهر جليّة أحيانا، وتضمر أحيانا، ونادرا ما تختفي، هي ثيمة (حب الكتاب).

ويعتني النقد الموضوعاتي (thematique) بالكشف عن الثيمات المطّردة ، ويرصد اطرادها ؛ لأنه هو المقياس والضابط في تحديد الموضوعات، فمتى ما تواترت ثيمةٌ في النص أو في النصوص بغزارة استثنائية عُدّت موضوعا[1]، مهما كان الغرض الشعري الذي وردت فيه، فـ"الموضوع الرئيسي هو الموضوع الذي تتردد مفردات عائلته اللغوية بشكل يفوق مفردات العائلات اللغوية الأخرى"[2].

---

(١) انظر: د.عبدالكريم حسن، المنهج الموضوعي: نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ٤١.

(٢) د.عبدالكريم حسن، الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ٣٤. وانظر له:

وإن رصد الثيمة /الموضوع لا يقتصر على الجذور الرئيسة للكلمات، أو الكلمات ذات الدلالات الأولى، بل يشمل الحقول الدلالية العامّة، ويعتني بالألفاظ التي تظهر في فلتات الاختيار المعجمي، أو في مضايق بناء الأخيلة، بين البدائل اللفظية المتكاثرة.

وعليه: فإننا قد نجد في نصوص الرثاء أو الهجاء ألفاظاً من معجم الغزل!، ويحق أن نتساءل، ما الذي جعل الشاعر يختار هذا الألفاظ بين بدائل لا تحصى كثرة، ولماذا ركّبها هذا التركيب دون غيره، وصاغها هذه الصيغة التخييلية دون سواها ؟، هل اختارها واعياً ؟ أم دفعها إلى سطح النص عقلُه اللاواعي؟، وما دلالة ترديد هذه الثيمات الساكنة في غير محلها المتوقّع ؟

ولا بد من الإشارة إلى أن "كثيرا من الباحثين يخلطون بين الدراسة الموضوعاتية، والنقد الأغراضي، يخلطون بين الدراسات التي تتناول الأدب في موضوعاته، مثل: (الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام لعبدالإله الصائغ)، أو (الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثالث لعلي الغيضاوي)، والدراسات الأغراضية وهي التي تحمل في عناوينها أسماء الأغراض، كالمدح أو الهجاء أو الغزل أو الاعتذار" [1]، وإن خير ما يلخّص فهم (الموضوع /الثيمة) قول ريشار (Richard): "الموضوع إحدى مقولات المعنى، وبشكل أدق: فإن الموضوع مقولة من مقولات الحضور المشهود بأهمية نشاطها في العمل الأدبي"[2]، فليس الموضوع في الدراسات الموضوعاتية الغرض، وليس هو المعنى العام للنص، بل هو قراءة دلالية واعية متأنية، تسبر النص أو النصوص، وتحلل

---

(١) أ.د. صالح بن الهادي رمضان، الخطاب الأدبي وتحديات المنهج، نادي أبها الأدبي، أبها، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٢٤.

(٢)ج. ب. ريشار .(G.B.Richar)، قراءة موضوعية (LECTURE THEMATIGUE)، محاضرة ألقاها في جامعة VINCENNE بتاريخ ١٩٧٦/٢/٢٥م. نقلا عن: د.عبدالكريم حسن، الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ٣٤.

وانظر هذه الكلمة أو نحوا منها بترجمة مختلفة:

ج. ب، ريشار، من محاضرة ألقيت في البندقية عام ١٩٧٤م، نقلا عن: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة: د. رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٧هـ، ١٣٨.١٣٩.

الوحدات المعنوية، لتصل من وراء ذلك إلى ثيمة متكررة تعدّ موضوعاً. وينفتح المنهج الموضوعاتي في سبيل الوصول إلى تلك الثيمة على كل ما يحتاجه من أدوات المناهج النقدية الأخرى، كدراسة المعجم، والتخييل، وهما الأداتان اللتان استخدمتهما في هذا البحث.

وإنني إذ أفترض أن عامة النصوص المقولة في الكتب منبعثة من حب الكتاب، وأن هذا الموضوع/الثيمة: (حب الكتاب) مندرج فيها، ثم أفحص تلك النصوص، وألتقط هذه الثيمات المتواترة معجماً وأخيلةً، من سياقاتها المتباينة، وأصدّق ما افترضته من خلال الكشف عن حقيقة ذلك التواتر الموضوعاتي ؛ أعدّني قد أنجزت الغاية التي سعيت وراءها.

والذي يدفعني إلى التشديد هنا على التفريق بين المنهج (الموضوعاتي) وما يسمّى بالمنهج (الموضوعي) أنك ستجد فيما يليك تصنيفاً للموضوعات، (المدح والهجاء...) ثم ستجدني سميتها موضوعات ولم أسمها أغراضاً !، وهذا سيوقع في الخلط بينها، وبين منهج البحث (الموضوعاتي)، وقد يظنّ ظانّ أنني أعد هذا التصنيف درساً موضوعاتياً، وما هو بذاك !. فما الذي دفعني إلى تصنيف تلك الموضوعات ؟ ثم لماذا أسميتها موضوعاتٍ ولم أسمها أغراضاً، لأخرج من الإلباس ؟!

أما الشق الأول من السؤال فإنني صنفت تلك الموضوعات لأثبت أن ثيمة (الحب) منسربة في كل الشعر المقول في الكتب على اختلاف معانيه وأغراضه، وليست منحصرة في المقول مدحا أو حبا للكتاب، ولو اقتصرت على هذا الموضوع الصريح لخرجت الدراسة عن المنهج الموضوعاتي، ولما صار للتتبعي الثيمة معنى !. لأنها لم تعد ثيمةً فحسب!، بل غرضا أو موضوعا هدف إليه الشاعر، وإن الثيمة لتأتي في موضع لا يتوقع ورودها فيه، وقد تبلغ من الخفاء مبلغا.

ثم إن بيان تنوّع تلك الأغراض/الموضوعات فيه دلالة على قيمة الكتاب في ضمير الشاعر، حتى إنه ليقول الشعر فيه على اختلاف حالاته العاطفية، ما يعود بنا إلى فهم علّة

انبثاث ثيمة (الحب) في النصوص، فلولا الحب لما كثر المقول وتنوّعت أغراضه/ موضوعاته.

أما الشق الآخر من السؤال فإنني صنّفتها موضوعاتٍ ولم أصنّفها أغراضاً لأنها لا تمثّل تمام التمثّل مقوّمات الغرض كما عُرِف واشتهر للإنسان مدحاً ورثاءً... كما أن بعض تلك الموضوعات ليس من الأغراض المشهورة المعترف بها أغراضاً من أغراض الشعر العربي، مثل القول في الاستعارة، وأنا مؤمنٌ أن أي تصنيف غرضي أو موضوعيّ لنصٍّ ما إنما هو تصنيف على التقريب، إذ من العسير أن يحقق نصٌّ واحدٌ ـ بكلّ ما فيه من بواعث ومقاصد ومعانٍ ـ غرضاً واحداً؛ وبخاصة أن التصنيف نشاط قرائي، وتجربة دلالية يتلوان عملية الإبداع، ويستمران ما استمرت القراءة، ويتطوران معها.

ومهما يكن من أمر فإنني أرجو أنني فرقت بين المنهج الموضوعاتي الذي قصدت إليه، وهذه الموضوعات التي صنفتها، وأنني أبنت المراد من الدرس الموضوعاتي المتعلّق بثيمة الحب في كل النصوص المدروسة، واختلافه عن التصنيف الموضوعي للنصوص فيما يليك:

١. الموضوعات العامة:

١.١. المدح:

١.١.١. مدح الكتب بعامة:

تنتمي أغلب النصوص الشعرية الواصفة للكتب إلى غرض المدح ـ إذا سلّمنا بالمدح عنوانا عاما يندرج تحته كل نص منبعث من عاطفة إيجابيّة ـ ونمثّل لجملة تلك النصوص بقول السري الرفاء (ت٣٦٦هـ): (من المتقارب)

وأدهَمَ يُسْفِرُ عَنْ ضِدِّهِ ... كما سَفَرَ اللَّيلُ إذا وَدَّعا

بعثت إليك به أخرسا ... يناغي العيون بما استودعا

صَـــــــمُوتٌ إذا زُرَّ جِلبابُـــــــــهُ أريـــــبٌ فـــإنْ حَلَّـــهُ أمتَعـــا[1]

إن هذه الأبيات وصف مادح للكتاب، ولكنّك إذا فتّشتها وجدتها متّكئة في التخييل وفي المعجم على فضاء الغزل، فالكتاب يسفر سواده عن بياض، كما تسفر الحسناء بعد حجاب، وهذا الكتاب /المحبوب أخرس في حضرة الحبيب يتناجيان بالعيون، ويمتع إذا حُلَّت أزرار جلبابه!. إنها استعارات متكاملة تحيل إلى مشبَّه به واحد هو المحبوب، وتستخدم ألفاظا تنتمي إلى معجم العشق، وإن هذه الأبيات بهذا الفضاء التصويري، وهذا المعجم الشعري تمثّل - أو تكاد - عامّة المقول في الكتاب على اختلاف الموضوعات كما سيتبيّن في درج الحديث.

وبعد التأمل في النصوص الواصفة مدحاً للكتاب رأيت أنها تخضع لمعنى مسيطر، هو تفضيل الكتاب على الإنسان، أو تفضيله على حاجات الإنسان الضرورية، أو متعه الروحية، فيكون الكتاب عوضا عنها، وفيما يلي بيان ذلك:

١.١.١.١. الكتاب عوض عن الإنسان:

من المعاني المدحية للكتاب الشائعة في النصوص أن أولئك الشعراء يفضلون الكتاب على الإنسان، بل يفضلونه في الغالب على الإنسان الحبيب القريب إلى القلب، كالصديق، والعروس[2]، وقد أحصيت من كل ذلك ما يربي على خمسين ومئة بيت، ومن جوامع ذلك قصيدة لأبي بكر القفال (ت ٣٣٦ أو ٣٦٥ أو ٣٦٦هـ) رُوِي أنه كتبها على خزانة كتبه، منها: (من الطويل)

---

(١) السري الرفاء، ديوانه، شرح: كرم البستاني، مراجعة: ناهد جعفر، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٢٨٦.

(٢) هذه المعاني - ومعان أخرى كثيرة غيرها فيما يستقبلك من النصوص الشعرية في هذا البحث - متناصة مع وصف الجاحظ للكتاب في الحيوان، وقد أعرضت عن التنبيه عليها في مواضعها لكثرة ذلك وظهوره.

انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤٢.٣٨/١.

خليلي كتابي لا يعاف وصاليا وإن قل لي مال وولى جماليا

وفى لي على حالَي جمالٍ وكبرة ولم يتجهّمني لشيب قذاليا

على حين خانتني الحسان عهودها وقطعن من بعد اتصال حباليا

كتابي عشيقي حين لم يبق معشق أغازله لو كان يدري غزاليا

كتابي أب بر وأم شفيقة هما هو إذ لا أم أو لا أبا ليا

كتابي جليسي لا أخاف ملاله محدث صدق لا يخاف ملاليا[1]

اخترت هذا النص دون غيره ؛ لشموله أصناف الأحباء، أو أقرب الأقربين إلى الروح: (الخليل، والجِسان، والمعشوق، والأب البر، والأم الشفيقة، والجليس)، وإن في ذكر الكتاب بإزائهم، أو تفضيله عليهم لدلالة على محلّه من القلب ؛ ومن غير هؤلاء يأنس بهم الإنسان ؟!. ويحن إليهم، ويرتاح بحضرتهم، إلا أن يكون الكتاب وفق المنطق الشعري آنذاك، وإذا تأملت الأبيات مرة أخرى وجدتها تستمدّ من المعجم الشعري الغزلي، والأخيلة المتعلقة بذلك المعجم، ومن معجم المجالسة والمنادمة، حتى لا تكاد تخرج لفظة واحدة أو صورة واحدة في هذه الأبيات من إحدى هاتين الدائرتين.

ومن النصوص الجياد في تفضيل الكتاب على الجليس[2] قصيدة طويلة لابن يسير الرياشي (ت٢٣٠هـ) وصف فيها اعتزاله الناس، ولجوءه إلى الكتب، منها: (من البسيط)

---

(١) الخطيب البغدادي. أحمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ١٢٧.

(٢) انظر نصوصا أخرى: ابن طباطبا، شعر ابن طباطبا العلوي، جمع وتحقيق: جابر الخاقاني، منشورات: اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين. دار الحرية، بغداد، ٤٨. ٤٩.

البيهقي. إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب ٦١)، القاهرة، ١٩٩١م، ١٥/١.

ابن قلاقس، ديوانه، تحقيق د.سهام الفريح، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ، ٤٣٨.

أقبلْـــتُ أهـــرُب لا آلـــو مُباعـــدةً ... في الأرض منهمْ فَلم يُحْصِنّيَ الهربُ

لمَّـا رأيـتُ بـأني لـستُ معجـزَهم ... فوتـــاً ولا هَرَبـــاً قرَّبـــت أحتجِـــبُ

فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلاً ... جَـارَ البـراءة لا شـكوَى ولاشَـغَبُ

فـرداً يحـدّثني المـوتى وتنطِـقُ لـي ... عن علمِ ما غاب عنّي منهمُ الكتبُ

هـم مُؤْنِـسون وألّاف غَنِيـتُ بهـمْ ... فلـيس لـي فـي أنـيسٍ غيـرهم أرَبُ

لِلّـــهِ مـــن جُلَـــسَاءٍ لا جَليـــسهمُ ... ولا عـــشيرهُمُ للـــسُّوءِ مرتَقِـــبُ

لا بـــادراتِ الأذَى يخـــشى رفـــيقُهمُ ... ولا يُلاقِيـــه مـــنهمْ مَنْطِـــقٌ ذَربُ[1]

نلحظ أن ابن يسير وصف نفسه قبل مجالسته الكتب بـ(الهرب، المباعدة، عدم التحصّن، الفوت) ثم بعد مجالسته الكتب دون الناس بـ(السرور، الجذل، الاحتجاب، الانفراد، الغنى) ووصف الكتب بـ(البراءة، الحديث، العلم، الأنس، الألفة، المجالسة، العشرة، الرفقة) وثمة معجم رابع انسرب في الأبيات دون ذكر للموصوف، هو معجم وصف الجلساء سوى الكتب !، وجاءت ألفاظه في سياق نفيها عن الكتب، وهذا ما يوضح الفرق بين مجالستها، ومجالسة البشر الذين يتصفون بـ(الشكوى، الشغب، السوء، الأذى، الخشية، المنطق الذرب)، وإن تداخل هذه المعاجم الأربعة، والتأمل في حقولها الدلالية يوضح أن الكتاب معادل موضوعي للمجتمع، وأن عاطفة حب الكتاب /الجليس تفوق عاطفة حب الأصدقاء الجلساء، إذ اجتهد في انتقاء ألفاظ المجالسة، وحشدها

(١) الجاحظ، الحيوان، ٩٤/١، ٩٦. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٢٤. القرطبي. يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، إدارة الطبعة المنيرية، مصر، ٢٠٣/٢. الزمخشري. محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: د. سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية .إحياء التراث الإسلامي، العراق، ١٩٧٦م، ٢٨٩/٣.

وصفاً للكتاب، ولم يكتف ببعضها، وكأنه يريد أن ينزع هذا الحقل الدلالي من البشر، ويضيفه إلى الكتاب، وانظر إلى مواضع ورود هذه الألفاظ الستة: (مؤنسون، ألاف، أنيس، جلساء، جليس، عشير) تجدها وردت في بيتين متواليين كادا يضيقان عن أي معنى أو لفظ سوى هذه الألفاظ العائدة إلى معجم واحد، وفي مقابل هذا الاجتهاد في إثبات المجالسة للكتاب نجد اجتهادا في نفيها عن الإنسان، يظهر ابتداء في معجم الهرب في مطلع الأبيات، ثم في انتقاء الألفاظ الدالة على جليس السوء من البشر ونفيها عن الكتاب، أما المعجم المتعلق بالشاعر نفسه، فهو معجم (السرور والجذل) بعد مجالسة الكتب، ويقابل معجم الهرب في الأبيات الأولى (أهرُب، مُباعدةً،لم يُحْصِنِّيَ، الهربُ، فوتاً).

ومن كل ذلك تظهر عندنا مقابلة رئيسة انبنت عليها الأبيات، معانيها وألفاظها وصورها:

نوع الجليس	وصف الجليس	وصف الشاعر
الإنسان	الشكوى والشغب	المباعدة والهرب
الكتاب	السرور والجذل	الأنس والرفقة

ويظهر التناقض بين (الوحدة والاحتجاب) و (الأنس والألفة والمجالسة...)، وهذا التناقض هو الأس الذي يولّد صور الكتاب العجيبة، إذ هو جليس، وليس بجليس، محدّث ميّت، ناطق صامت، حاضر ماضٍ، فاعلٌ مفعول به، مؤثر غير مبادر، وكانت هذه الثنائيات مصدرا للمعاني والأخيلة والحلى اللفظية في هذه الأبيات، وفي كل ما شابهها من نصوص في تفضيل الكتاب على الجليس.

ويكتمل المعادل الموضوعي الاجتماعي بتفضيل الكتاب على العروس، أو الحبيبة، ومنه[1] قول أبي الحسن محمد بن معقل بن محمد الأزدي (ت؟) من قصيدة: (من الخفيف)

---

(١) انظر أمثلة أخرى: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤. الطرطوشي. محمد بن محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ١٢٨٩هـ، ٢٠٥.٢٠٦.

لـــيس شـــيء ألـــذ عنـــدي ولا آ ... نـــس لـــي مـــن تأمـــل فـــي كتـــاب

هـــو أشـــهى مـــن ارتـــشاف رضـــاب ... مـــن حبيـــب مـــن بعـــد طـــول اجتنـــاب

أجتنـــي مـــن ثمـــاره بـــارع العلـــ ... ـــــم مـــــشوبا بلـــــذة الآداب

ذاك أنـــسي مـــن دون كـــل أنـــيس ... وحبيبـــي مـــن ســـائر الأحبـــاب[1]

اعتمدت هذه الأبيات ـ في تفضيلها الكتاب على الأنثى المحبوبة ـ على معجم الغزل الحسي، واللذة الجسدية اعتمادا شبه مطلق، ولو حللنا ألفاظ الحقول الدلالية في الأبيات لوجدنا أن عدد الكلمات ـ سوى أدوات الربط ـ ثلاثون كلمة، منها خمس عشرة كلمة من ذلك المعجم: (ألذ، آنس، أشهى، ارتشاف، رضاب، حبيب، اجتناب، أجتني، ثمار، مشوب، لذة، أنس، أنيس، حبيب، أحباب)، وثلاث كلمات من معجم العلم: (كتاب، العلم، الآداب)، فلم تبق إلا ثنتا عشرة كلمة تستطيع إلحاقها بأحد المعجمين، وإن بلوغ الألفاظ الصريحة لمعجم واحد ما نسبته خمسون في المئة يعد سيطرةً تكاد تحيل النص من الموصوف الكتاب إلى وصف الحبيب، ولعل ما ساعد على بروز هذا المعجم وأخيلته التي تجعل الكتاب شبيها بالحبيبة أو تجعله إياها ـ في هذه القطعة وأمثالها ـ أمور منها: سهر الشاعر الليالي مع الكتاب، والليل زمن المبيت قرب الحبيب، فمن هنا تطرأ هذه العلاقة في ذهن الشاعر. وغضب النسوة من انشغال أزواجهن عنهن بالكتب، وتقع المقارنة. وعجز كثير من متلفي أموالهم على الكتب وأوقاتهم في الارتحال طلبا لها عن الزواج، فيعلّلون أنفسهم بادعاء الاستعاضة بالكتاب عن العروس.

ووجدت في تفضيل الكتب على الناس أنهم يفضلونها على مجالسة الملوك والوجهاء وأصحاب الأموال، في معنى يقابل التزام الشعراء والعلماء مجالس علية القوم طلبا للمال، من ذلك[1] قول أبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ): (من مخلع البسيط)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤ـ١٤٥.

لمـــا رأيـــت الزمـــان نكـــسا ولـــيس فـــي الـــصحبة انتفـــاع

كـــل رئـــيس بـــه مـــلال وكـــل رأس بـــه صـــداع

لزمـــت بيتـــي وصـــنت عرضـــا بـــه مـــن العـــزة اقتنـــاع

أشـــرب ممـــا اقتنيـــت راحـــا لهـــا علـــى راحتـــي شـــعاع

لـــي مـــن قواريرهـــا نـــدامى ومـــن قراقيرهـــا ســـماع

وأجتنـــي مـــن حـــديث قـــوم قـــد أقفـــرت مـــنهم البقـــاع[٢]

قدّم الفارابي أبياته بذم الصحبة، صحبةِ الأكابر بخاصة، ثم اختار الوحدة ولزوم البيت، ثم ذكر ما يستعيض به عن مخالطة الناس، وهو: الراح وقواريرها وقراقيرها والكتب !، وإن اقتران الكتب هنا بالراح ليشي باشتراكهما في حقول دلالية صرح الشاعر منها بحقل واحد هو (الصداقة والمنادمة)، إذ استخدم لفظتي (ندامى، سماع) للراح، واستخدم لفظتي (أجتني، حديث) للكتاب، ومهما يكن من أمر فإنه قد فضّل الانفراد بالكتاب والراح على مخالطة الناس، فهل يعني هذا أن حب الكتاب يساوي حب لذة الشراب وآلاته ؟ في المبحث الموالي طرف من جواب هذا السؤال.

٢.١.١.١. الكتاب عوض عن سائر الحاجات والمتع:

إذا كان في الكتاب عوض عن الإنسان كما مرّ، فإنه عوض عما دون ذلك، فقد أكثر الشعراء من القول في استغنائهم بالكتاب عن سائر ما يحتاجه الناس ويطلبونه،

---

(١) وانظر أمثلة أخرى: الثعالبي. عبدالملك بن إسماعيل، تتمة يتيمة الدهر، شرح وتحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٠،١٩١. القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ٢٠٣/٢

(٢) ابن أبي أصيبعة. موفق الدين أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د.نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ٦٠٧.

كالمال، والطعام، والشراب، واللهو، والنزهة في البساتين والرياض، يقول أبو هفّان (ت٢٥٧هـ) مفضّلا الكتاب وما يجمعه على جمع المال: (من المتقارب)

إذا آنس الناس ما يجمعون ... أنست بما يجمع الدفتر

له وطري وله لذتي ... على الكأس والكأس لا تحضر[1]

تدور على الشرب محمودة ... لها المورد الخِرْق والمصدر

يغنّيهم ساحر المقلتين ... كشمس الضحى طرفه أحور

وريحانهم طيب أخلاقهم ... وعندهم الورد والعبهر[2]

انظر إلى المعجم الشعري للبيتين الأولين تجد أنه استخدم الجذر (أنس) في لفظتين: (آنس، أنست) واستخدم أيضا لفظتي (وطري، لذتي، الكأس) وتلك الألفاظ من معجم (الصداقة والمنادمة) ومن معجم (العشق) أيضا، وقد انفتح النص بأثر هذه الألفاظ على تلك المعاني في الأبيات اللاحقة ـ مع تصريحه قبلُ بأن (الكأس لا تحضر) ـ فذكر (الكأس، والشرب، والغناء، وسحر المقلتين، والحور، والريحان)! وكل ذلك مما يكون في مجالس الندامى، ومخادع العشاق، والذي يعنيني أن النص بمجمله يجعل الأنس بالكتاب ولذته معادلا موضوعيا للأنس بالشراب وكل ما يجري في مجالسه!، وما انفتح النص على هذه المعاني إلا لقوة ارتباطها بالكتاب ذاته، إذ الكتاب معادل موضوعي لها، ففيه كل المتعة واللذة اللتان فيها، وتلك إشارة إلى قوة الرابطة الروحية بين الكتاب وقارئه، تلك الرابطة تتجاوز المنفعة والعلم، إلى فضاء الحب واللذة.

ويقول أبو نواس (ت١٩٨هـ)[1] واصفاً الفقر والجوع، والاستغناء بالكتاب عن الطعام: (من الخفيف)

---

(١) في الأصل (تُحصَر)، وفي طبعة دار بيروت: (تحضر)، ورأيتها أقرب إلى الصواب.

(٢) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/١٤.

عـــدم المؤنـــسين غيـــر كراريـــ ـــس يـــسلين همـــه فـــي قمطـــر

وجـــزاز فيهـــا غريـــب إذا جـــا ع قراهـــا فمـــال بطنـــا لظهـــر

ثـم والـى بـين الجـشاء كـأن قـد بلـــغ الـــشبع مـــن قليّـــة جـــزر

والرقاشـــي مـــن تكرّمـــه تَجْـــ ـــزأ[٢] أمعـــاؤه بإنـــشاد شـــعر[٣]

وإنني لست غافلا عما في هذه الأبيات من المعابثة التي كانت بين أبي نواس والرقاشي (ت نحو ٢٠٠هـ) ولكن ذلك لا ينفي أنه حين أراد أن يذكر عوضا من الطعام هداه العقل التخييلي الشعري إلى الكتاب (الكراريس والجزاز)؛ وهذا يدل على أن الكتاب راسخ في هذا المعنى، كما يحيل إلى ما كان يعرف من (حرفة الأدب) ونكد أهل العلم، وعدم استغنائهم بعلمهم، وإذا نظرنا إلى المعجم الشعري وجدنا أن معجمي (العشق) و (الصداقة) خافتان، إلا أنهما لم يغيبا في البيت الأول، إذ استخدم فيه هذه الألفاظ: (المؤنسين، يسلّين، هم) وذلك يحيل مرة أخرى إلى ما افترضناه بدءا من ارتباط كل موضوعات هذا الشعر بالحب، ومما يشير إلى هذا الارتباط في هذا المعنى قول السري الرفاء من قصيدة: (من الكامل)

وإذا خلـــوت بهـــن ظمـــآن الحـــشا منحتـــك مـــن صـــوب العقـــول منـــاهلا[٤]

ولست أنظر إلى معنى الاستعاضة بالكتب عن الشراب، وأنها منهل عذب يروي الظمآن، بل أنظر إلى لفظة (خلوت) فالكتاب لا يطاوع صاحبه على ما يشتهيه حتى يختلي به!. فيهبه حينذاك ما يشاء.

---

(١) أخّرته عن أبي هِفّان وهو المتقدّم؛ لأني قدّمت (المال) على (الطعام).

(٢) الجَزْء: الاستغناء بالشيء عن الشيء. انظر: لسان العرب (جزء).

(٣) أبو نواس. الحسن بن هانئ، ديوانه، تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٥٦٦.

(٤) السري الرفاء، ديوانه، ٣٦٠. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٠،١٣١.

وفي الكتاب شفاء يستعاض به عن الدواء ! وسلوى لمن أقلقه الهم والحزن، يقول أبو بكر الشيطان (ت ؟): (من البسيط)

إذا اعتللت فكتب العلم تشفيني فيها نزاهة ألحاظي وتزييني

إذا اشتكيت إليها الهم من حزن مالت إلي تعزيني وتسليني [1]

إن المغرمين بالكتب يجدون فيها كل حاجتهم، ليس ذلك خاصا بالحاجات الروحية فحسب، بل حتى الحاجات البدنية كالطعام والدواء[2]، كما يزعم حبهم للكتب وشعرهم فيها، كما أن الكتب تحب من يحبها وتحادث من يحادثها، وتخفف ألم الشكوى، وانظر إلى التخييل في قول الشاعر: (مالت إليّ) فهي لا ترخي سمعها له فحسب، ولا تعزيه وتسليه فحسب، بل تميل إليه بأبدانها ميلَ الصاحب المحب ! .

أما استغناؤهم بالكتاب عن النزهة في البساتين، والتريّض، وعن متعة الشراب ومجالسه، فإن النصوص في هذا كثيرة جيّدة، ومنسوبة إلى طبقة عالية من العلماء والشعراء، أختار منها قول ابن دريد (ت٣٢١هـ) ـ وقد ذكر بعض الكتب ووصفها بمتنزهات القلوب ـ: (من المتقارب)

ومن تك نزهته قينة وكأس تحث وأخرى تصب

فنزهتنا واستراحتنا تلاقي العيون ودرس الكتب[3]

وقول السري الرفاء من قصيدة يدعو فيها صاحباً له: (من الكامل)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٣، ١٤٤.

(٢) انظر مثلا آخر: الثعالبي. عبدالملك بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ٣٩٣/٤.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٢٤٩٨/٦.

عنـدي إذا مـا الـروض أصـبح ذابـلا تُحَـفٌ أغـضٌ مـن الريـاض شـمائلا

سُـقِيَتْ بـأطراف اليـراع ظهورهـا وبطونهـــا طـــلا أجـــمّ ووابـــلا

تلقـاك فـي حمـر الثيـاب وسـودها فتخـــالهن عرائـــسا وثـــواكلا

ولهـــا إذا حُلّـــت نِتـــاج غرائـــب يمكـــثن مـــا زرت بهـــن حـــواملا[1]

وقول القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ) من أبيات: (من الخفيف)

مـا تطعّمـت لـذة العـيش حتـى صـرت للبيـت والكتـاب جليـسا[2]

إن هذه الأبيات وأمثالها لتدل على العلّة التي بها بزّ أولئك القوم أقرانهم، فقد اتخذوا الكتاب جدهم وهزلهم، أحبوه حباً صار به متعةً، وصارت الاستراحة من العلم بالنزهة في العلم !، وانظر إلى المعجم الشعري في هذه الأبيات تجده لا يخرج عن معجم الحب بفرعيه المتقدمين: (نزهته، قينة، كأس تحث، تصب، نزهتنا، استراحتنا، تلاقي العيون، أغض، ظهورها، وبطونها، تلقاك، عرائسا، لذة، جليسا) بل إن تأنيث الكتاب التخييلي يبلغ ذروته في بيت السري الرفاء الأخير، إذ جعل العلاقة بالكتاب تبلغ حد الإلقاح، والنتاج، ولكنه نتاج لا يبذل إلا لمن يبذل المهر، ويحلٌ لباس تلك الكتب.

٢.١.١. مدح أعيان الكتب:

من الموضوعات الشعرية التي تكاثرت نصوصها حتى بلغ ما جمعته منها ستة وستين ومئة بيت[3]: مدح أعيان الكتب، وهو مختلف عن (مدح الكتاب) الذي تقدّم،

---

(١) السري الرفاء، ديوانه، ٣٦٠.٣٦١. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٠ـ١٣١. المحبي، محمد أمين، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ، ١/٢١٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/١٧٩٨ـ ١٧٩٩.

(٣) وفي المقابل لم أجد في ذم أعيان الكتب إلا بيتين، هما إلى ذم المؤلف أقرب. انظر:
ابن دانيال، شمس الدين محمد، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: الإمام صلاح الدين ايبك الصفدي، تحقيق: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ، ٢٤٦.٢٤٧.

فذلك قول يقع على كل كتاب، أما هذا فيمدح كتاباً معيّناً، وغالب أشعار هذا الموضوع قصار، ذوات البيت والبيتين، ويظهر في بعضها فضاءا (العشق) و (الصداقة والمنادمة) جليين، ويتواريان في بعضها، ومن تلك النصوص نصان أوردهما ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) لقائلين مجهولين، أولهما في وصف مجموعة[١] : (من الطويل)

ومجموعةٍ فيها علوم كثيرة ... تقر بما فيها عيون الأفاضل

ألذ من النعمى وأحلى من المنى ... وأحسن من وجه الحبيب المواصل

حكت روضة حاكت يد القطر ... ومسّك رياها نسيم الأصائل

أطالعها في كل وقت فأجتلي ... عقائل يُغلي مهرها كل عاقل

وأمنعها الجهّال فهي حبيبة ... (جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي)[٢]

وثانيهما مقول في (رسائل الصابي)، منه: (من الكامل)

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابي أبي إسحاق

صوب البلاغة والحلاوة والحجى ... ذوب البراعة سلوة العشاق[٣]

---

(١) المجموع أو المجموعة هي ما كان المتعلقون بالأدب ينتقونه لأنفسهم في دفاتر أو كتب خاصة مما يطربهم من الأدب، وربما تحوّلت كتبا يتداولها الناس.

وقد كان وصف المجاميع الأدبية فاشياً كثيراً، وأكثر من أورد أمثلته صاحب مستوفى الدواوين، ولم أعتمد الأبيات التي أوردها لخروجها في الغالب عن الحد الزماني للموضوع.

انظر أمثلة: الأزهري. محمد بن عبدالله، مستوفى الدواوين، تحقيق: زينب القوصي و وفاء الأعصر (إشراف: د. حسين نصار)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ١/٦، ١/١٩٢-١٩٣، ٢/١١٣-١١٤.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء،١/١٣.

(٣) المصدر نفسه، ١/١٣٢.

إن هـذين النـصين أنموذجـان للنـصوص التـي تظهـر فيهـا معـاني عـشق الكتـاب والتعلّق بـه، وانظر إلى المعجـم الـشعري فـي الـنص الأول تجـد فيـه: (ألـذ، أحلى، أحـسن، الحبيـب، المواصـل، أطالعهـا، عقائـل، يغلـي مهرهـا)، وأسـتمدّ مـن هـذا المعجـم أمـرين، أحدهما أن ألفاظه تدل على حـب عميق لم توفّه كلمة واحدة من هذه الكلمات (اللذة والحلاوة والحسن) فاحتاج إلى إيرادهن جميعا ليقول المعنى الذي في نفسه، وأوردهن بصيغة التفضيل (أفعل) ليبلغ من كل كلمة أقصى ما يمكنها أداؤه، وفضّل بهن الكتاب على (الحبيب المواصل)، والأمر الآخر: هو أن الشاعر أراد أن ينفي كل عيب قد يحدثه تشبيه الكتاب بالحبيب المواصل، أو المعجم الغزلي الذي يكثر مثله في وصف المرأة اللعوب، فاحترس الشاعر في البيت الأخير وشبّه تلك المجموعة بعقائل النساء، ذوات المهور.

أما القطعة الثانية فتشبه الأولى في المبالغة في إظهار عاطفة الحب (مشتاقا، صبابة، سلوة، العشاق)، واللذة (صوب، حلاوة، ذوب)، وهذان المعجمان الفاشيان في كثير من القطع الشعرية يبيّن أولهما صدق حب صاحب الكاتب كتابَه، ويبالغ الثاني في تلك العلاقة حتى يحيلها إلى لذة تكاد تكون حسية لا معنوية، وفي كلا المعجمين معانٍ تفضّل الكتاب على المحبوب الإنسان، فلا يعدل عندهم حبَّ الكتاب شيء.

وإن أطول ما وقعت عليه من نصوص مادحة لكتاب واحد ست قصائد في (دمية القصر) ختم بها صاحب الدمية كتابه مفتخرا به، تواطأن على تشبيه الكتاب بالحسناء، وسأورد بيتا أو بيتين من كل قصيدة منها[1]؛ تبياناً لذلك المعنى، فأولاهنّ قول البارع الزوزني (ت٤٩٢): (من الطويل)

(١) رتبت هذه القصائد كما رتبها صاحب الدمية.

دمــين خــدود الغانيــات بخجلــةٍ لأنّ عليّــاً قــد جــلا دميــة القــصر[1]

والثانية قوله أيضا: (من الطويل)

جلــوت علينــا دميــة القــصر غــادةً فأضــحت بألحــاظ البريّــة مــأخوذه

فخفتَ عليها العين من كلّ عاشقٍ وقـد عبتَهـا كـذباً يكـون لهـا عـوذه[2]

والثالثة قول الفضل بن إسماعيل بن الفضل التّميميّ الجرجانيّ (ت٤٦٧هـ): (من البسيط)

وهي العرائس لا ترضى لبهجتها أن تستباح بلا ألف من البِدَر[3]

والرابعة قول يعقوب بن أحمد (ت٤٧٤هـ): (من الطويل)

عقائلُ خدرٍ آنساتٌ كأنها بدور سماءٍ للنواظر تنجلي[4]

والخامسة قول أبي الفضل الخيريّ (ت؟): (من السريع)

ودميــة القــصر أتــت كاســمها معشوقة المنظر والمخبر [5]

والسادسة قول عليّ بن أحمد الفنجكرديّ (ت٥١٣هـ): (من البسيط)

أم غـادة فـردةٌ فـي الحـسن غانيـةٌ فتانــة أقبلــت فــي حليهــا عطــره

---

(١) الباخرزي، علي بن الحسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: د.محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ٣/١٥٢١-١٥٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ٣/١٥٢٢-١٥٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣/١٥٢٣-١٥٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣/١٥٢٤.

(٥) المصدر نفسه، ٣/١٥٢٥.

فرعـــاء بهكنـــة خـــودٌ منعمـــةٌ غيـــداء خمـــصانة وهنانـــة خفـــره[1]

لم أكتف بالاستشهاد ببعض هذه القصائد لأني أعددهن أنموذجاً من وجوه، أولها: طولهن الذي يدرجهن ضمن القصائد التي صرف إليها الشعراء عنايتهم على خلاف المقطعات. وثانيها: أن صاحب هذا الكتاب قد حفظ هذه النصوص ونقلها، وربما نستدل بها على مفقود كثير في وصف الكتب ـ غير الدمية ـ لم يقيَّض له أن يثبته الكاتب في كتابه بعد تأليفه ومطيره بين أيدي الناس، وثالثها: أن هذه القصائد كانت عاملا من عوامل الحركة العلمية التأليفية وثرائها، إذ فيها تحفيز للكاتب، وفيها أيضا إشارة إلى الذات من قبل المتطلّعين إلى أن تثبت أسماؤهم على صفحات تلك الكتب، ومنهم من يصرّح بهدفه ذلك [2]!. ورابعها: أنه يظهر فيها كلها فضاء (العشق)، من خلال المعجم، ومن خلال تشبيه الكتاب بالحسناء، بأوصاف حسية لا معنوية !.

٣.١.١. مدح الكاتب كتابه:

ومن الموضوعات الشعرية في حب الكتاب: مدح الكاتب كتابه، وهو مثل سائر الشعر المقول في الكتب منبعث من عاطفة الحب، ويختلف عنه بظهور معاني الفخر والتصريح بها، إذ إن تعظيم الكتاب تعظيم لمؤلفه/الشاعر[3]، في حين لا تظهر معاني الفخر في سائر الموضوعات وتتوارى خلف ادعاء حب الكتاب، الذي يسلم إلى ادعاء حب العلم، الذي يسلم إلى أن يعد الشاعر من أهل العلم، ويرتفع بذلك.

---

(١)المصدر نفسه، ٣/ ١٥٢٥.١٥٢٨.

(٢) انظر مثلا: القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ٢/ ١٧٤.

(٣) انظر مثلا: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٧٦٩.

وتتباين تلك النصوص تباينا يسيرا بحسب موضع كتابتها، إذ تأتي في أربعة مواضع، أولها: أن تكون منقولة عن الكاتب في كتاب غير ذلك الكتاب[1]، وثانيها: أن يثبتها المؤلف على جلدة كتابه[2]، وثالثها: أن تكون في مفتتح الكتاب، ورابعها: أن تكون في خاتمته.

أما الأول والثاني فسأعرض عن ذكرهما صفحا مكتفيا بما أحلت إليه من نصوص في الحاشية ؛ إيجازا، وسأستشهد على الثالث والرابع ؛ إذ هما الأكثر ورودا، وفيهما غناء عن النوعين الأولين، فمن طريف ذلك أن ابن الحسين السراج (ت٥٠٠هـ) صاحب كتاب (مصارع العشاق) قد قسم كتابه اثنين وعشرين جزءا، افتتح كل جزء منها بثلاثة أبيات، كان حظ الجزء الأول قوله: (من الكامل)

هـذا كتـاب مـصارع العـشاق ... صـرعتهم يومـا نـوى وفـراق

تـصنيف مـن لـدغ الفـراق فـؤاده ... وتطلّـب الراقـي فعـزّ الراقـي

فـإذا تـصفحه اللبيـب رثـى لهـم ... أسـرى الهـوى أيـسوا مـن الإطـلاق[3]

---

(١)انظر مثلا: المصدر نفسه، ٢/٨٦٤ ـ ٨٦٥ ، ٤/١٧٦٩. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥ م،٢/٣٦٨.

(٢) انظر عدة قطع في ذلك: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٤.١٣٥.

وقد كان مؤلفو الكتب ونساخها ومالكوها يدونون على ظهورها فوائد متفرقة وأشعارا، ويصعب أحيانا الجزم بنسبة الأبيات إلى المؤلف أو الناسخ أو المالك. ومن طريف التآليف أن بعضهم جمع تلك الأشتات على ظهور الكتب، فألف منها كتابا. انظر:

جميل بن مصطفى بك العظم، الصُّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات، اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر: غرر الفوائد على طرر المخطوطات والنوادر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

وقد حاكيا أبا الحسن القفطي في كتابه ـ المفقود من جملة ما فقده تراثنا العربي ـ (نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من على ظهور الكتب). انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٢٠٢٨.٢٠٢٩.

(٣) السراج، جعفر بن أحمد ابن الحسين، مصارع العشاق، مطبعة الجوائب، الآستانة، ١٣٠٢هـ، صفحة الغلاف.

ووجه الطرافة هنا ـ سوى تكرار افتتاح كل جزء بأبيات ـ أن حب الكتاب صار متمثلا في أبيات يكتبها عاشق للمرأة، ولكتابه، على ظهر كتاب صنفه في العشق وفي أخبار العشاق !، ولا يسوء هذا العشق المضاعف إلا وهن تلك الأبيات وتهافتها.

ولعل خير ما يستشهد به في هذا الموضوع أبيات وصف بها ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) كتابه (معجم الأدباء) ؛ لجودتها قياسا على غيرها ؛ ولأن ياقوتاً قد اهتم بالقول الشعري في الكتاب، وأورد في الكتاب نبذاً شتى، استشهدت ببعضها في هذا البحث، فمن قوله في وصف كتابه: (من الطويل)

يـــرنّح أعطـــافي إذا مـــا قرأتـــه ... كمـــا رنّحـــت شـــرّابها ابنـــة الكـــرم

ولـــو أننـــي أنـــصفته فـــي محبتـــي ... لجلّدتـــه جلـــدي وصـــندقته عظمـــي

ولـو أننـي أسـطيع مـن فـرط حبّـه ... لما زال مـن كفـي ولا غـاب عـن كمّـي[1]

نجد في البيت الأول امتدادا للمعنى الذي يشبّه متعة الكتاب المعنوية بالمتع الحسية، وهي المبالغة التي تتكرّر كثيرا، وأرى فيها إثباتا لعمق العلاقة العاطفية بين الكتاب والإنسان، أما البيت الثاني فإنه ـ فيما أعلم ـ صورة مبتكرة، ما استطاع مثلها ياقوت ـ الذي لم يشتهر بالشعر ـ لولا أن حبه للكتاب فتّقها له، فهي لا تكاد تكون خيالات شاعر بل إحساسا حقيقيّاً يحسه مؤلف ذلك الكتاب، الذي يتمنى لو لم يفارق كتابُه يدَه لحظةً من ليل أو نهار كما صرّح في البيت الثالث.

أما ختم الكتاب بأبيات فذلك شائع، ويأتي في غالبه لمقصد الاستعطاء[2]، إذ يُهدَى الكتاب إلى ذي سلطان أو مال ويجتدي المؤلف جائزته بتلك الأبيات، وكان ذلك العطاء والاستعطاء مسهما في نموّ الحركة العلمية، ولم أورد أمثال هذا الشعر في موضوع

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء،١٢/١.

(٢) أو لمقاصد نفعية أخرى، كالتأريخ بالجمّل ليوم الفراغ من الكتاب، أو طلب الدعاء والذكر الحسن.

(الإهداء والاستهداء). الذي سيأتي فيما يستقبلك .؛ لاختلافه عنه في البواعث والمعاني، إذ ليست هذه الهدية من هدايا الإخوان والمتناظرين، بل هي هدية في دائرة علمية تحوي أهل العلم ورعاته، ويقصد من ورائها نيل العطاء، وسأضرب على ذلك مثلا واحدا[1] هو قول علي بن ظافر الأزدي (ت٦١٣هـ) في خاتمة كتابه (غرائب التنبيهات): (من الكامل)

نجز الكتاب وجاء يلهي من رأى ... حسنا ويطرب بالملاحة من قرا

جمع المحاسن كلها فأتى بها ... مصداق كل الصيد في جوف الفرا

إن كان نحو الغيث يذهب إنه ... قد جاء روضا بالمعاني أزهرا

أهديت جوهره إلى بحر وذا ... عجب لأن البحر يهدي الجوهرا[2]

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى ما في الأبيات من معجم (العشق): (يلهي، رأى، حسنا، يطرب، الملاحة، المحاسن)، فقد ارتبط المخيال الشعري الغزلي بالقول في الكتاب ارتباطا وثيقا، حتى لا يكاد ينفك عنه، فتجده يرد في موضوعات تستبعد وروده فيها كختم الكتاب بالاستعطاء في هذه الأبيات.

٢.١. الشكوى والبَرَم:

نجد بين بعض النصوص المقولة في الكتب والشكوى تواشجاً، إذ كثيرا ما يربط الشعراء فقرهم وبؤسهم بعلمهم، وفضلهم، ويرون أن المال عدو للعلم، وهذا معنى

---

(١) انظر أمثلة أخرى: الثعالبي، عبدالملك بن محمد، خاص الخاص، تحقيق: د. صادق النقوي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٤٠٥هـ، ٦٢٤.٦٢٥. ابن رشيق القيرواني، العمدة، ١١٣٢/٢.
ابن الهبارية، شعره، جمع وتحقيق: د. محمد فائز سنكري طرابيشي، وزارة الثقافة (إحياء التراث العربي)، دمشق، ١٩٩٧م، ١٦٥.١٦٦.

(٢) علي بن ظافر الأزدي، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق: د. محمد زغلول سلّام و د. مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، القاهرة، ١٧٠.

أثير لدى الشعراء تعاوروه بينهم، ووجدت صداه فيما قيل في الكتب، ومنه قول بعضهم من ستة أبيات في الشكوى: (من الوافر)

أنست إلى التفرد طول عمري فمالي في البرية من أنيس

جعلت محادثي وندیم نفسي وأنسي دفتري بدل العروس [1]

وقول أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٥هـ): (من الوافر)

وقالوا كيف أنت فقلت خير تُقَضّى حاجة وتفوت حاج

إذا ازدحمت هموم القلب قلنا عسى يوما يكون لها انفراج

نديمي هرتي وسرور قلبي دفاتر لي ومعشوقي السراج[2]

وقد مرّت نتف من هذه المعاني فيما مر بك من أبيات وستمر فيما يستقبلك، والملحوظ أنهم في شكواهم لم ينعتقوا من معجمي (العشق والغزل) و (الصداقة والمنادمة)، إذ تجد ألفاظهما مبثوثة داخل الأبيات مثل (أنست، أنيس، نديم، محادثي، أنسي، العروس، القلب، نديمي، سرور، قلبي، معشوقي) كما أنك لن تجدهم في شكواهم يذمون الكتاب أو يجعلونه سببا للبؤس، رغم ربطهم الوثيق بين العلم والفقر، ولكنك تجدهم ينزهون الكتاب، ويرفعون محله، ويجعلونه الأنس والسرور، ويستعيضون به عن الصاحب والعروس !، رغم ما هم فيه من فقر مرتبط بالعلم !، ولعل الكتاب هنا ليس إلا وسيلة لإظهار التسامي عن الشكوى إلى الناس.

وإيغالا في تنزيه الكتب تجد الشعراء عند الضيق والبرم يحيدون عن هجائها إلى هجاء الناس الذين لا يعرفون قدرها، ولا يزنونها قيمتها، يقول أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن محمد (ت ٤٧٤هـ): (من الطويل)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤. الطرطوشي، سراج الملوك، ٢٠٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء،٤١٢/١.

عرضت على الخباز نحو المبرد وكتباً حساناً للخليل بن أحمد

ورؤيا ابن سيرين وخط مهلهل وتوحيد جهمٍ بعد فقه محمد

وأنشدته شعر الكميت وجرول وغنيته لحن الغريض ومعبد

فما نفعتني دون أن قلت هاكها مدورةً بِيضاً تطنّ على اليد[1]

ويقول ابن تميم الإسعردي (ت ٦٨٤هـ): (من الطويل)

عرضت كتابي كي يباع بدرهم على مشترٍ عند الوفاء شحيح

رأى خطه ذا علة فأعاده ومن يشتري ذا علة بصحيح[2]

فالكتاب في الحالين لم يجدِ نفعا، ولكنه ليس الملوم ولا المعيب، بل الملوم هو المشتري الجاهل، والمشتري الشحيح، وإنني لأعجب أن لم أجد نصوصاً صريحة في ذم الكتب، رغم كثرة ما يقال في (حرفة الأدب) و (شؤم العلم) و (حظ الجهل)، فعلى تكاثر النصوص في ذلك وتناسل معانيها، وتنافس الشعراء على الإغراب لم يجتز أحد منهم حدَّ التهوين من شأن الكتب والوضع منها، وما ذاك إلا لحبهم إياها، وتعظيمها في نفوسهم، وهو مما يطمئنني إلى صواب ما اتخذته عنوانا للبحث (حب الكتب)، ولو نظرت فيما ألزمت نفسي به من تتبع لثيمة الحب في هذه الأبيات فسأخرج بكلمتين منتميتين إلى معجم (العشق) هما: (حساناً) في القطعة الأولى، و(كتابي) في القطعة الثانية، وما

(١) الثعالبي، تتمة يتيمة الدهر،٢٠٣.

وهذا النص متناص مع نص نثري لبديع الزمان الهمذاني، وفيه يقول: "ولقد جهدت بالطباخ أن يطبخ من (زائية) معقل بن ضرار الشماخ لوناً فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع (أدب الكتاب) فلم يقبل، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت، فأنشدت من شعر (الكميت) مئتي بيت، فلم يغن كما لا يغني لو وليت".

انظر: الثعالبي، خاص الخاص، ٣٤.٣٥.

(٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، المطبعة الأزهرية المصرية، ط١، ١٣٠٥هـ، ٦/١.

تدل عليه ياء الملكية، وكلمات أخرى منتمية إلى معجم (الصداقة والمنادمة)، هن: (أنشدته، شعر، غنيته، لحن، الغريض، معبد).

ولم أجد الكتاب يستعمل في معاني التبرم الذي يكاد يكون هجاء إلا في نصوص ثلاثة، أحدها[1] لأبي طاهر بن عمر بن شبة (٢٦٣ أو بعد ٢٧٠هـ) قاله على سبيل التملّح: (من المتقارب)

نظرت فلم أر في العسكر ... كشؤمي وشؤم أبي جعفر

غدا الناس للعيد في زينةٍ ... من اليوم في منظرٍ أزهر

ونغدو عليهم بلا أهبةٍ ... فراراً من المنزل المقفر

فنقعد للشؤم في عزلةٍ ... من الناس ننظر في دفتر[2]

وما يدل على أنه مقول تملّحا وتظرّفا أن الشاعر إن كان يهجو فإنما يهجو نفسه وصاحبه قبل هجائه الكتاب فالشؤم منسوب إليهم جميعا، والأمر لا يعدو أنه قد نازعته نفسه إلى شيء من الترف يوم العيد، فلم يستطع إلى ذلك سبيلا، فعاد إلى الشعر مستعملا ما ورثه من الشعراء من الربط بين العلم والفقر.

---

(١) النصان الآخران ساخران، لجحظة البرمكي (٣٢٤هـ) وللكفرطابي (ت٥٥٣هـ)، ذكرا فيهما تبرمهما بالأدب والعلم وحرفته، وشكواهما من الفقر، وأورد أحدهما اسم كتاب (النقائض)، وأورد الآخر كتاب (المقتضب) ممثّلين للكتب التي هي جزء مما ضاقوا به ذرعا. انظر:
جحظة البرمكي، ديوانه، تحقيق: جان عبدالله توما، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٣٧. د. مزهر السوداني، جحظة البرمكي الأديب الشاعر، (يحتوي الكتاب على مجموع شعره)، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٩٧هـ، ٣٠٠-٣٠١. الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات (نسخة مصورة)، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين، دار النشر فرانز شتاينر، شتوتغارت، ط٣، ١٤١١هـ، ٥/ ٢٤٧.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٢٠٩٤. الحافظ اليغموري. أبو المحاسن يوسف، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تحقيق: رودلف زلهايم، دار النشر: فرانتس شتاينر، فيسبادن، ١٣٨٤هـ، ٢٣١.

وهذا الشؤم المرتبط بالكتاب ليس معنيا على حقيقته، ولا يفهم منه أن الشاعر يكره الكتاب ويراه سببا للشؤم حقا، بل المقصود ما وراء ذلك من ذم للناس الذين لا يرعون الكتاب وأهله حق الرعاية، حتى غدا الجَهَلَةُ في أبهى زينة يوم العيد، لا يأبهون بالشاعر وصاحِبِه وعلمِهِما، فانعزلا، وما استطاعا التّمَاسَّ مع المجتمع في يوم العيد أبهى الأيام، وأحراها بالاجتماع والتواصل !، وحين انعزلا لم ينعتقا من الكتاب، ولم يتخليا عنه، بل تمسّكا به، إذ تصرح الأبيات بـ: (ننظر في دفتر)، كما يُفهم ضمناً تمسّكهما بالكتاب مهما يكن من فقر وعزلة من اختياره كلمة (الدفتر) ـ وهو المظهر الخلق للكتاب ـ؛ إذ تؤدي هذه اللفظة معنى الارتباط الوثيق بينه وبين الكتاب مهما تكن قيمة ذلك الكتاب وهيئته، كما تعزّز لفظة (الدفتر) الصورةَ الكاريكاتورية للمشؤومَين المنعزلَين يوم العيد بهيئتهما الرثة وبكتابهما الرث.

ولو شئت لقلت إن الأبيات أقرب إلى مدح الذات والافتخار بالكتاب منها إلى الهجاء، إذ إن الشاعر لم يستنكف أن يهجو ذاته بحب الكتاب والتعلق به، وليس هذا إلا فخرا !، فهو مدح بما يشبه الذم، وهو أدنى لقبوله وتصديقه من تكذيبه، لأن السامع يصدّق ذمَّ المتكلم ذاتَه ولا يرده، فهو شاهد على نفسه، فإذا قبل هذا المعنى الهجائي كان الذامُّ قد اختدعه بأن جعله يصدّق تعلقه بالكتب، وانشغاله بها دوماً حتى في يوم العيد !، وتركه متع الحياة في سبيلها، فينقلب الهجاء مدحا، ويصير الكتاب في كل أحواله حبّاً وحمداً، حتى حين يستخدم استنقاصاً وذماً !.

٣.١. الرثاء والتحسّر:

عُرِف رثاء الإنسان واشتهر، وعُرِف في الشعر العربي رثاءٌ لغير الإنسان، كان في الغالب الأعم من نصوصه هزلا وتملّحاً ما عدا رثاء المدن، ورثاء الكتب أيضاً، فقد رثى الشعراء كتبهم التي فقدوها رثاءً يظهر في بعضه عظم الفجيعة بفقدها، بل إن شعرهم رثاها قبل فقدها خوف فقدها !، بل إنهم تحسروا على كتبهم التي ستفقدهم

بعد موتهم !، وهذا إيغال في الرثاء لا أعرف شبيها له في الشعر العربي إلا ما يكون من التحسر على الأولاد الصغار عند من يستقبل الموت.

ومن ذلك[1] قطعة نفيسة لأبي الحسن الفالي (ت ٤٤٨هـ) كتبها على رقعة ضمَّنها مجلدة من مجلدات كتاب (الجمهرة) لابن دريد وقد اضطر إلى بيعه: (من الطويل)

أنست بها عشرين حولاً وبعتها ... فقد طال شوقي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ ... صغار عليهم تستهل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ ... مقالة مشوي[2] الفؤاد حزين

"وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من ربٍّ بهن ضنين"[3]

إن اللوعة في هذه الأبيات ظاهرة، وإن الفقد أشبه بفقد الأحبة، وانظر إلى ألفاظ البيت الأول، تجد الشاعر استخدم الألفاظ: (أنست، شوقي، حنيني) وهي من معجم (العشق)، ثم انظر إلى التحديد الزماني في قوله: (عشرين حولا) تجد له وقعاً في الروح، وتأثيراً على النفس، فالكتاب ليس شيئاً عابرا لا يؤبه به، بل إنه كالإنسان، يُحفَظ تاريخ مولده، ويقع تحت عين صاحبه يرقبه، ويرعاه، حولا وحولين وثلاثة، وكلما طالت عشرته

---

(١) اشتهر في رثاء الكتب التي أكلتها الأرضة نصان لابن المعتز (ت٢٩٦هـ) ولأبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) ضربت عن ذكرهما صفحا ؛ إيجازا. انظر:
ابن المعتز. أبو العباس عبدالله، ديوانه، صنعة: أبي بكر محمد الصولي، تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ٢/٥٧٦-٥٧٧. أبو هلال العسكري، ديوانه، تحقيق: د. جورج قنازع، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٤٠٠هـ، ٦٥-٦٦. أبو هلال العسكري. الحسن بن عبدالله، ديوان المعاني، تحقيق: أحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢/٨٢٤-٨٢٥، ٢/٨٢٥-٨٢٦ .

(٢) الكلمة في وفيات الأعيان (مكويّ) وهي الأشهر والأشعر ! إلا أنني اعتمدت الرواية الأقدم في معجم الأدباء. انظر الهامش الموالي.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/١٦٤٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٣١٦.

ازداد تعلق القلب به، حتى إذا بلغ عشرين حولا التصق بالروح التصاقا، فكان يوم فقده يوما للحنين والتذكّر، تذكّر الأحوال التي عاشها عند مالكه، حولاً حولاً، فتفيض عبراته ويفيض شعره. وإن ذكر عدد الأحوال هنا قد أكسب هذه القطعة روحاً وقيمةً لم تكن لتكون لها دونه. وانظر إلى تأنيث الضمير في قوله: (بها، بعتها، بعدها، أبيعها) تجده زاد الأبيات لوعة، وقرّبها من فضاءات الغزل، وفراق الحبيبة، وقد كان للشاعر أن يستعمل ضمير التذكير العائد إلى (الكتاب)، ولكنه اختار ضمير التأنيث العائد إلى (الجمهرة) أو (النسخة) أو (المجلدات).

ولو بحثنا في الدلالة الرمزية للنص لرأينا تقريعا للذات ولوما عنيفا لها؛ إذ يقسو الشاعر على نفسه مستنكرا جرأته على بيع هذا الكتاب الذي (آنسه) عشرين حولا حتى صار لصيقا به، قريبا منه، تجب حمايته كما يحمي أولاده ـ الذين استدعاهم مخياله الشعري في هذا النص ـ ولكنه لم يرع هذه الصلة والعشرة، وباع الكتاب !، وخان الود والعهد !، ثم بكى !، واجتهد أن يقنع نفسه بعذر ليرفع عنها الملامة، فذكر الفقر والأولاد، وألمح إلى قصة الأعرابي الذي باع ناقته مضطرا من خلال تضمين البيت الشعري الأخير[1]؛ ليشير إلى أنه لم يفعل بدعا من الفعل، وكأنما بنيت معاني النص لترتاح نفس الشاعر اللوامة !.

ولا عجب أن يبكي أبو الحسن كتابه فقد بكاه قبله وبعده جمعٌ من عشاق الكتب، وعدّ بعضهم فجيعة الكتاب فوق الفجيعة بالأخلاء والأصحاب، يقول ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ): (من الطويل)

إذا فجع الدهر امرأً بخليله ... تسلّى ولا يسلو لفجع الدفاتر[2]

---

(١) البيت الأخير مضمن، لأعرابي باع جمله وتبعته نفسه. انظر القصة كاملة: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١٦٤٧/٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٤٤/١.

بل زعموا أن من أصحاب الكتب من تبلغ به الفجيعة حد الموت !، يقول عبدالحميد بن عبدالرحيم (ت ؟) من قطعة نظمها: (من الوافر)

وكم قد مات من أسف عليها أناس في الحديث وفي القديم[1]

ولقد وجدت نصوصا تردّد معنى واحداً هو التأسي لحال الكتب بعد موت صاحبها، وصاحبها هو الشاعر نفسه!، فكأنما يرثيها إذا مات هو !، ولا يكاد يرى أحدا بعده سيفيها حقها، وما هي أهل له من الإكبار والتعظيم، يقول عبدالله بن علي المقرئ الحنبلي(ت ٤٩٩هـ): (من المتقارب)

نشحّ على الكتب من لمسة تمس[2] ومن نظرة تنظر

وتُبصَرُ مجهولة بعدنا بأيدي الجهول ومن يخبُرُ[3]

ويقول الفقيه نصر بن عبدالرحمن الإسكندري (ت ٥٦١هـ) : (من الطويل)

أُقَلِّبُ كُتْباً طالما قد جَمَعْتُهَا وأَفْنَيْتُ فيها العَيْنَ والعَيْنَ واليدا

وأصبحتُ ذا ضنٍ بها وتمسُّكٍ لِعِلْمِي بما قد صُغْتُ فيها مُنَضَّدَا

وأَحْذَر جَهْدي أن تُنَالَ بنائلٍ مُبيرٍ وأن يغتالَهَا غائلُ الرَّدَى

وأعلمُ حقّاً أنني لستُ باقياً فيا ليت شعري من يُقَلِّبُها غدا[4]

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٥٠.

(٢) في الأصل (بمس).

(٣) الأصبهاني. عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر ـ القسم العراقي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، الجزء الثالث نَشَرَتهُ: وزارة الإعلام /سلسلة كتب التراث، العراق، ١٩٧٦م، ج٣ مج ١ /٢٧.

(٤) المصدر نفسه، قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين وآخرَين، دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث)، ١٤٢٦هـ، طبعة مصورة عن طبعة ١٩٥١م، ٢/ ٢٢٥.

هاتان القطعتان أنموذج لقطع شتّى كرّرت هذين المعنيين : (الخوف من فقد الكتب ـ كما في البيت الثالث ـ والتحسّر على الكتب بعد موت صاحبها) وتظهر الركاكة فيهن جميعا، وأرد تلك الركاكة إلى أن قائليها ليس محلهم من الشعر كمحلهم من العلم، وأن حب الكتب قد دفعهم إلى القول فيها شعرا، فصار هذا الضعف من هذه الجهة قوة للموضوع الشعري بعامة، أعني موضوع القول في الكتب بدافع الحب ؛ إذ إن هذه العاطفة المشبوبة قد دفعت غير الشعراء إلى قول الشعر.

وانظر الصورة الشعرية في قوله: (أقلّب) وقوله: (يقلّبها غدا) ـ وهي صورة تكرّرت في هذا المعنى[1] ـ تجد أنها صورة تكاد تكون مستمدّة من فضاء الحب والعلاقة الجسدية بين العشاق، وأعد النظر إلى القطعة الأولى تجد أن الشاعر يلجأ إلى فضاء (العشق) متخذاً معنى من معانيه هو (الغيرة) أساساً للتخييل، إذ هو يغار على الكتب أن تُمَسّ باليد، وأن ينظر إليها، فهي أشبه بالحبيبة التي يتملّكها صاحبها، ويغضب إن ابتُذِلَت، أو رام أحد منها نظرة فما فوق ذلك، فالكتاب في العقل التخييلي مرادف للمحبوبة، يكاد يكون إياها، لحماً ودماً، بل إن كل تلك القطع التي تتحسر على الكتب قبل فقدها كأنما تنبعث من عاطفة الغَيرة، والرغبة في امتلاك الحبيب، وتلك عاطفة إنسانية يجدها الرجل تجاه زوجته، إذ يكره أن يلامسها رجل بعده.

ومن صور التواشج بين رثاء الكتب والغزل أن يستحضر الشاعر في نصه أنثى يخاطبها، أو يقارن كتبه بها، أو يتغزل بها ثم يذكر كتبه، ومن ذلك قول أبي الحسن علي بن محمد الخولاني المعروف بابن الحداد المهدوي (ت بعد ٤٨٥هـ): (من مجزوء الكامل)

قالت وأبدت صفحة ... كالشمس من تحت القناع

بعت الدفاتر وهي آ ... خر ما يباع من المتاع

فأجبتها ويدي على ... كبدي وهمت بانصداع

---

(١) انظر مثلا: المصدر نفسه، ٢/٢٢٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٢/١٤٥.

لا تعجبـــــي ممـــــا رأيـــــت فـــنحن فـــي زمـــن الـــضياع[1]

والحظ أنه بعدما تغزّل بالمرأة، وجرى ذكر الكتب استخدم في الرثاء صورة ترد كثيرا في الغزل، هي صورة الكبد المنصدعة لوعةً، فباعث الحب المسيطر على هذه القطع يحدث أثرَه فيها على عدة مستويات، ظهر منها هنا مستويان، استحضار المرأة الجميلة، ثم استخدام فضاء التخييل الغزلي للكتاب دون تلك المرأة، فصار حب الكتاب أمكن في نفس الشاعر من حب المرأة !؛ إذ التفت عنها إليه، واستخدم له ما كان لها، ولست غافلا عما في هذه القطعة من دلالات ـ تكررت كثيرا في النصوص المشابهة ـ تحيل على ذم الزمان والناس؛ إذ لا يرعون العلم وأهله، حتى صار العالم مضاعا بينهم، لا يكاد يجد ما يأكل إلا بالتخلي عن العلم تخليا حسّياً ببيع الكتب !، ويرمز ذلك إلى التخلّي المعنوي ! ما دام حظ العالم دون حظ الجاهل.

٤.١. الغزل:

إن هذا البحث قائم على افتراض أن ما قيل من شعر في الكتب إنما قيل بباعث الحب إلا قليلا، ولقد وجدنا معجم الحب وأخيلته مبثوثة في الأبيات على اختلاف أغراضها، ولكن ذلك لا يمنع أن أخص الغزل بالحديث، وبخاصة أن المعاني الغزلية قد طغت على بعض القطع حتى قرّبتها من غرض الغزل أو كادت[2]!، من ذلك قول أحدهم: (من الطويل)

حبيبي من الدنيا الكتاب فليس لي إلـى غيـره مـا بـي إليـه مـن الفقـر

(١) الحافظ السلفي. أبو طاهر أحمد بن محمد، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ، ٢٤٠.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ٥/٢٣١.٢٣٢.

(٢) مع تأكيد ما أشرت إليه في فرش البحث من أن التصنيفات الغرضية أو الموضوعية لا تكون إلا على التقريب، وجمع النظائر وفق مستويات معينة، ويندر أن يحقق نصٌّ واحدٌ غرضاً منفرداً بكل بواعثه ومعانيه ومقاصده.

كلانا لصيق[1] الروح بالروح مانح دنواً بلا بعد ووصلاً بلا هجر

فكرسيه حجري إذا كنت قاعداً وإن أضطجع أفرشه مستلقياً صدري[2]

إن المعالنة في بدء القطعة باتخاذ الكتاب حبيباً فوق كل حبيب لم تشف الشاعر، فكأنما خشي ألا يبعد ظن المتلقي، وأن يظن أن هذا الحب حب معنوي فحسب، فاقتضى ذلك الإيغال في الخيال الشعري، فبالغ في وصف الحب، وإثباتِ أنه حب جسدي !، فالكتاب (يلتصق) بالجسد والروح التصاق العاشق بالمعشوق لا يفارقه في أحوال الجلوس والاضطجاع، واليقظة والمنام، بل إن تفضيل حب الكتاب على حب الإنسان يظهر من خلال ذكر (البعد) و (الهجر) الذي لا يقع إلا من الحبيب الإنسان، ولعل المبالغة في وصف العلاقة بين الكتاب وصاحبة ردٌّ فعل على خيبة أملٍ وقعت للشاعر في الحبيب الحقيقي.

ومهما يكن من أمر فإنه ارتباط عشق يؤكد مرةً أخرى صحة ما افترضته من باعث قولهم الشعري في الكتب، وأنه نتاج الحب، ويَقَرّ ذلك أكثر إذا قرنّاه بالمعجم الغزلي الفاشي في سائر القطع.

٥.١. الإهداء والاستهداء:

من موضوعات الشعر الإخواني الفاشية آنذاك القول في الإهداء والاستهداء، كان ذلك كثيرا، يقال في كل شيء مهما دقّ أو جلّ، إذ يبعث المهدي بأبيات بين يدي هديته، ويشكره صاحبه بأبيات أخرى، وربما استهدى أحدهم هدية بأبيات، ووراء ذلك حركة أدبية تقتنص القول الشعري كل حين[3].

---

(١) في الأصل: (لضيق) وهو تصحيف، وفي المخلاة: " كأن لصوق". انظر الهامش الموالي.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣/ ٢٣٢. العاملي. بهاء الدين محمد، المخلاة، نسقه وفهرسه ووضع هوامشه: محمد خليل الباشا، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ،٢١.

(٣) انظر بسطاً لهذه المسألة: إبراهيم بن محمد أبانمي، هجاء غير الإنسان في شعر المشرق من القرن الثاني إلى نهاية القرن السابع: موضوعات الهجاء ومحركات القول وخصائصه، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م، ٤٨ـ٥٤، ٧٤ـ٨١، ٢١٦ـ٢٢١، ٢٣٠ـ٢٣١.

ومن تلك الهدايا التي كثر القول فيها (الكتاب)، ولا غرو، فـ(الكتاب) هدية أرباب الأدب والعلم، و(الشعرُ) زادهم ومستراحهم، فإذا اتفق أن يهدي أحدهم كتابا دون غيره من الهدايا كان ذلك أدعى لحضور الشعر، من ذلك[1] أن ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ) أُهدي إليه كتاب ، فأجاب المهدي بأبيات منها: (من الهزج)

بـــــدت أبكـــــار أفكـــــار فكـــان الطـــرف فـــي عـــرس

ومـــا أكثـــر لـــي فيـــه مـــن الراحـــة والأنـــس

وقـــد قابلـــت مـــا يحويـــ ـــه بالتقبيـــل والـــدرس[2]

يلفت النظر في هذه الأبيات قدرة الشاعر على المزج بين معجمي الغزل والعلم مزجاً صيّرهما واحدا، نلحظ ذلك في البيت الأول حين استخدم الجناس (أبكار، أفكار) والجناس يوهم المتلقي بقرابة معنوية بين اللفظين كقرابتهما الصوتية. ونلحظ ذلك أيضا في الشطر الثاني حين استخدم الاستعارة، مشبّها عينه بالعروس حين اختلت بالكتاب واتصلت به وأطالت ترداد النظر إليه، ولا يتم المعنى هنا إلا بربطه بلفظة (أبكار) التي وردت في الشطر الأول، أو أنه أراد تشبيه اجتماع الأفكار في كتابه باجتماع الحسناوات في العرس، وطرفه آنسٌ بهنّ، يشاهدهن. ثم نلحظ ذلك المزج مرة ثالثة في البيت الثالث حين عطف كلمة (الدرس) على (التقبيل)، وهما من معجمين متنافرين، يتآلفان في هذا الموضع وهذا الموضوع، وإن كان التقبيل يحيل على التعظيم في بعض المعاني، إلا أن ما تقدّم من أبيات يقرّبه إلى المعنى الغزلي.

---

(١) انظر أمثلة أخرى: الصاحب بن عباد، ديوانه، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار القلم ببيروت ومكتبة النهضة ببيروت وبغداد، ط٢، ١٣٩٤هـ، ١٩٦ـ١٩٧. الثعالبي، يتيمة الدهر، ٢/ ٢٨٠، ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١، ٣/ ١٦٨، ١٧١. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٢، ١٣٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٧٥٢. وانظر فيه قطعتين أخريين في الموضوع ذاته: ٣٦٩.

ومن اللطائف في هذا الموضوع أن الشعراء قد يتخذون الكتاب المحبوب وسيلة إلى التقرب من الإنسان المحبوب، ومن ذلك أن أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، الفقيه الطوسي (ت قبل ٤٠٥هـ) أعطى غلاما كتاب (العين) وكتب: (من الوافر)

كتاب العين ظلّ يقرّ عيني ... ويصلح بين من أهوى وبيني

كتاب العين قوّاد لطيف ... يحلُّ إليك عُصْم التفلتين[1]

ومثله أن أحمد بن كليب (ت٤٢٦هـ) افتتن بغلام اسمه أسلم. وقد اشتهر أمره. وأهدى إليه كتاب (الفصيح) وكتب عليه: (من المجتث)

هذا كتاب الفصيح ... بكل لفظٍ مليح

وهبته لك طوعاً ... كما وهبتك روحي[2]

تظهر طرافة هذين النصين إذا استحضرنا أن القول في الكتاب عادةً يستعين بالغزل، فيقترض من معجمه وأخيلته، ولكن الحال انقلب هنا، فاستعان الغزل بالكتاب؛ لينال من المحبوب ما يريد!.

عرضت فيما سبق الموضوعات العامة التي تقال في الكتاب وفي غيره، وثمّة موضوعات أخرى لم أجد لها كثير أمثلة فلم أفرد لها عنوانا، ومن ذلك - على سبيل المثال - (الألغاز)، فقد تناول بعض الشعراء الكتاب ملغزين به، والألغاز - إن صح عدّ مجموع نصوصها غرضاً شعرياً - كانت مما يحرص الشعراء على القول فيه في العصر العباسي الثاني بخاصة وما وراءه، وهي غرض من الأغراض الدالة على حظوة الشعر الاجتماعية، إذ تُطَرّى بها المجالس، وتشحذ القرائح، ويتنافس في حبكها، والإجابة عليها شعرا ونثرا

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤/٣٥٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١/٤٢٥.

المتنافسون، وقد كان للكتاب حظٌّ منها، من ذلك قول ابن الخشاب النحوي (ت٥٦٧هـ): (من الطويل)

وذي أوجــــه لكنــــه غيــــر بــــائح　　بــسرٍّ وذو الــوجهين للــسر مظهِــرُ

تناجيــك بالأســرار أســرار وجهــه　　فتــسمعها بــالعين مــا دمــت تنظــر[1]

اعتمد الإلغاز في هذين البيتين على معجم (الصداقة والمنادمة)، والفضاء التخييلي المحيل على ذلك المعجم، ففي البيت الأول تظهر المفارقة بين ذي الأوجه، وذي الوجهين، فالثاني جليس سوء، يستقبلك بغير ما يستدبرك به، أما الأول الملغَز فيه فذو وجوه كثيرة، ولكنه يرعى حق جليسه، ويحفظ سرّه، وهذه المفارقة ملبسة، إذ وصف جليسا محموداً بصفة سوء شكلية، وهي في الآن نفسه صفة محمودة، أما البيت الثاني ففيه أن هذا الملغِز محلٌّ للمناجاة، وموضع للأسرار، وحبيبٌ لا تملّه العين، وهذه الصفات لا تكون إلا للصديق من الجلساء. والذي يعنيني أن الإلغاز اعتمد على تلبيس الكتاب بالجليس الصديق ؛ وهذا نتاج اشتراك الأول مع الثاني في فضائه التخييلي، وما كان ذلك لولا أن الكتاب يحل من روح الشاعر ذلك المحل من المحبة، والأنس به، حتى ضارع الصديق والتبس به.

٢. موضوعات خاصة بالكتاب

١.٢. الاستعارة:

استعارة الكتب وإعارتها مظهر ثقافي ظهر جليّا في الشعر[2]، وقد أحصيت في ذلك ما يربي على سبعين ومئة بيت في القرون السبعة الأولى، ولم أعجب ؛ إذ إن كثرة القول في هذا الموضوع تصدّق ما افترضته من أن حب الكتاب هو باعث الشعر، فمستعير

---

(١)الأصبهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، ج٣ مج١ / ١٠-١١. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤ /١٤٩٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣ /١٠٣.

(٢) انظر: محمد خير رمضان يوسف، آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي.

الكتاب ومعيره يرغبان في الاستحواذ على ذلك الكتاب وتملّكه، فتظهر مناورات شعرية طريفة، وبخاصة القول في طلب الإعارة، ومنعها، وطلب إعادة العاريّة، وكل ذلك بين يديك:

١.١.٢. طلب إعارة:

تكاثرت القطع المقولة في استعارة الكتب وإعارتها، ولم تخرج ـ على كثرتها وتنوّع معانيها ـ عمّا نتلمّسه من باعث حب الكتب المسيطر على كل النصوص، فالمستعير يطلب الكتاب وكأنما هو يخطبه من أهله، والمعير يزفّه إلى المستعير بالشعر، من ذلك أن أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ) كتب إلى أبي علي البغدادي القالي (ت ٣٥٦هـ) يستعير منه كتاباً: (من المجتث)

بحـــــق ريـــــم مهفهـــــف　　وصـــــــدغه المتعطـــــــف

ابعـــــث إلـــــيّ بجـــــزء　　مـــــن (الغريـــــب المـــــصنف)[١]

فأجابه، وبعث به إليه مع أبيات قريبة في ألفاظها الغزلية من هذين البيتين، وأعد النظر في البيت الأول تجده اجتلب الصورة الفنية (الريم المهفهف) من الفضاء التصويري للغزل، ولا يُتَصوّر الرابط بين الفضاءين إلا إذا أقررنا بأن باعث القول هو الحب، حب الكتاب حبّاً كحب الحسناء، بل ربما طلب أحدهم الكتاب وأظهر لوعةً كلوعة العشاق، ومنه أن تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (ت ٣٧٤هـ) كتب إلى أحدهم يستعير كتاب (القيان والمغنين) وبعث بأبيات منها: (من الخفيف)

فتفـضل يـا مـن حـوى قـصبات الـسـ　　ـــبق فـــي كـــل جيئـــة وذهـــاب

بكتـــــاب القيـــــان إنـــــي إليـــــه　　ذو غليـــــل ولوعـــــة واكتئـــــاب[٢]

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٦/ ٢٧٢٢.

(٢) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ديوانه، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ، ٤٦٤.

إن حب الكتاب هو الذي يولّد هذه المعاني الغزلية، والمعجم المستخدم في البيت الثاني معجم الغزل، حتى خُيِّل الكتابُ أنثى يخطبها المستعير من وليّها[1]، ويتذلّل في ذلك، ولا يستنكف من التذلل.

وإن تقديم الشعر بين يدي استعارتهم الكتب يدل على ضنّ أرباب الكتب بها، حتى لا تكاد تستخرج إلا بالملاطفة، فإن لم يكن ذلك كذلك فإنهم لفرط حبهم الكتب يقولون فيها الشعر كل حين، ولست غافلا عن أن أرباب الكتب ـ معيريها ومستعيريها ـ من أهل الأدب، وأولئك يلذ لهم أن يتطارحوا الشعر، ومهما يكن من أمر فإن استخدامهم معجم الغزل، وأخيلته دالان على أن باعث القول هو عاطفة الحب.

أما المستعار منه الكتاب فإنه يزفّ كتابه بأبيات شعر يودّعه فيها، ويذكر أنه ما نزل عنه مع حبّه إياه إلا لحب المستعير، ومنه أن أبا الحسين علي بن محمد بن سعيد بن عبد اللطيف (ت؟) بعث بأبيات إلى من استعار منه كتابا، وفيها قوله: (من المتقارب)

ولو لم تكن ثالث الناظرَين لما كنتَ ناظرَه فاعرِف[2]

إن أبا الحسين لم ينزل عن كتابه الذي يحبه إلا لحبٍّ أكبر منه، حبِّه للمستعير، والحظ أنه قصر النظر إلى كتابه على ثلاث أعين، عينيه، وصاحبه الذي يعدّه عينا له، وهذا منبثق من معاني (الغيرة)، الغيرة على الكتاب حتى كأنه من محارم مالكه، يمنعه من أعين الناظرين كما يمنع نساءه، ولمّا أزمع إباحته وبذله للغريب فتّش عن مخرج يؤنسه ويسليه فلم يجد غير الإقناع التخييلي بأن جعل ذلك الغريب عينا ثالثة له، وعيناه الباصرتان يباح لهما النظر إلى محاسن الكتاب فيجري على الثالثة ما يجري عليهما.

---

(١) انظر شاهداً آخر قدّم له الباخرزي بمقدّمة صرّح فيها بمعاني الخطبة والزفاف: الباخرزي، دمية القصر،٢/ ٨٧٠.

(٢) الأصبهاني. عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر. قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي / المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٥هـ، ٢/ ٨٦ .

٢.١.٢. منع الإعارة

ومن فرط حبهم الكتاب وخوفهم عليه أنهم كانوا يمنعونه مستعيره، ويعالنون بذلك، لا يستنكفون، ولا يعدونه بخلا، ولا منعا للماعون، بل إنني لم أحص من قولهم في الحث على بذل الكتب للمستعير إلا أربعة عشر بيتا[١]، ووجدت في الضن بها وإمساكها ثلاثة وثلاثين بيتا، وليس بالخفي أن المستعيرين إنما يطلبون الكتاب من الأصدقاء، وهذا ما يعظّم شناعة الإمساك، ولكنهم لا يعدونها شناعة، يقول بعضهم معتذراً عن امتناع إعارته: (من الطويل)

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة ... وصيقل ذهني والمفرّج من همي

يعز على مثلي إعارة مثله ... وآيته ألا يفارقه كمي[٢]

ويقول الآخر غير مستنكف أخذ الرهن من الصديق إذا أعاره كتابا: (من مجزوء الرمل)

أعِرِ الدفترَ للصا ... حب بالرهن الوثيق

إنه ليس قبيحا ... أخذ رهن من صديق[٣]

ولنا أن نستنتج أن عشّاق الكتب ما تخلّوا عن خلق الكرم الذي تؤكده الثقافة العربية، ويرسخه العقل الثقافي الشعري، ويُعدّ ضده عيبا لا يكاد صاحبه يبرأ منه، إلا لحبّ مَلَكَ جوارحهم وألهاهم عن التخلّق بالفضائل، بل صاروا كبخلاء الجاحظ يعللون

---

(١) انظر مثلا: الثعالبي، تتمة يتيمة الدهر،٢١٢. الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر. القسم العراقي، ج٤ مج ٤٧١/٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٤١/١.

(٣) اليزدي. أحمد بن محمد بن جعفر، جزء فيه عاريّة الكتب، ملحق بكتاب: آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ، ١٢٧. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٩.

رذيلتهم، ويحيلونها إلى فضيلة [1]، ولعلي لا أبالغ إن قلت: إن منع الإعارة مردود إلى أن الكتاب عندهم معادل للأنثى المحبوبة، فلا يرد في أذهانهم الربط بين تلك النصوص الثقافية في ذمّ الإمساك وبين فعل إمساك الكتاب ؛ إذ الأقيسة مختلفة، والكتاب ـ عندهم ـ ليس أداة ولا ماعوناً، بل هو معشوق يُغار عليه، ويُصان، تدلّ على ذلك أشعارهم ضمناً، وربّما صرّحت به تصريحا، يقول أحدهم: (من الوافر)

ومعشوقي من الدنيا كتابي وهل أبصرت معشوقا يعار[2]

٣.١.٢. طلب إعادة الكتاب إلى صاحبه:

وإن لمعتذر لهم أن يعتذر بما يلاقيه معيرو الكتب من حبسها عند مستعيريها، في مشهد عجيب، إذ يضن مستعير الكتاب بالكتاب[3] كما ضن به معيره من قبل، كلٌّ يريد حيازته والفوز به، ولقد وجدت خير النصوص المقولة في الإعارة والاستعارة وأطولها ما قيل في استرجاع الكتب المحبوسة عند المستعيرين، فقد قال في هذا المعنى نفر من مشاهير الشعراء، منهم الحمدوني[4] (ت٢٦٠هـ) وابن الرومي[5] (ت٢٨٣هـ) وابن المعتز[6]

---

(١) انظر شاهدا يصرح بأنه ما منع الكتاب مستعيره إلا حباً: محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر، ١/ ٦٥.

(٢)محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر، ٢/ ٢٦٤.

(٣) وضد ذلك أني وقعت على قصيدتين يشكر فيهما المستعير المعير، لأبي العلاء المعري، ولناصر بن جعفر البوشنجي. انظر:

الخطيب التبريزي، الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢/ ٨١٩.٨٣٧. الباخرزي، دمية القصر، ٢/ ٩١٨.

وقطعة يعتذر فيها المستعير إلى المعير عن فقد الكتاب المستعار. انظر: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٥٠.

(٤) انظر: الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٣/ ٢٣٦. ابن حمدون. محمد بن الحسن، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٥/ ٨٨ ـ ٩/ ٣٥٣.

(٥) انظر: ابن الرومي. علي بن العباس، ديوانه، تحقيق: د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٥/ ١٨٤٣.

(٦) انظر: ابن المعتز، ديوانه، ١/ ٧٤٢.

(ت٢٩٦هـ) وكشاجم[١] (ت٣٦٠هـ) وابن سكرة[٢] (ت٣٨٥هـ) وابن الساعاتي[٣] (ت٦٠٤هـ) وابن عنين[٤] (ت٦٣٠هـ)، وغيرهم، وسأكتفي من مجموع ذلك بشاهدين، أحدهما يستمد معجمه وأخيلته من فضاء (العشق) والآخر يستمد من فضاء (الصداقة والمنادمة). يقول سبط ابن التعاويذي (ت٥٨٣هـ) من قصيدة له قالها "وكان قد استام منه إنسان كتبا أدبية فأخرها عنده، ومطله ثمنها، وابتذلها: (من الكامل)

مهتوكة حرماتها مبذولة ... صفحاتها محلولة أزرارها

قد أبديت عوراتها لكم وما ... أنتم محارمها ولا أصهارها

ومن العجائب أنها نكحت ولا ... صدقاتها حُمِلت ولا أمهارها

فامنن عليها بالإياب فما نبت ... عن مثلها أوطانها وديارها

واعطف لغربتها وطول مقامها ... بذَرَاك فهي رقيقة أبشارها[٥]

ويقول أبو القاسم الدينوري[٦] (ت نحو ٣٩٠هـ) من أبيات يسترجع بها كتاباً معاراً: (من الخفيف)

---

(١) انظر: كشاجم. محمود بن الحسين، ديوانه، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢٣٢. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٤٣/١.

(٢) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٢٢٧٧ ـ ٢٢٧٨.

(٣) انظر: الكتبي. محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ٤/ ١٨٤ـ١٨٥. (وهي من فائت ديوانه: نشرة أمين المقدسي).

(٤) انظر: ابن عنين. محمد بن نصر، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٣٨.

(٥) سبط ابن التعاويذي، ديوانه، تحقيق: د. س. مرجليوث، دار صادر، بيروت، (مصورة من طبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣م)، ٤٨٣.

(٦) أخّرته عن سبط بن التعاويذي في الاستشهاد وهو المتقدّم زمنا، لأن أبيات السبط تتضمن معجم (العشق) وهو المعجم المقدّم عندي على معجم (الصداقة والمنادمة)، إذ الأول أكثر استخداماً، وألصق بالموضوع الرئيس: (الحب) الذي يسعى هذا البحث إلى كشفه.

أنـــا أشـــكو إليـــك فقـــد نـــديمٍ ... قـــد فقـــدت الـــسرور منـــذ تـــولى

كـــان لـــي مؤنـــساً يـــسلي همـــومي ... بأحاديـــث مـــن منـــى الـــنفس أحلـــى

عـــن أبـــي حـــاتم عـــن ابـــن قريـــب ... واليزيـــدي كـــل مـــا كـــان أملـــى

وهـــو رهـــن يـــشكو إليـــك ويبكـــي ... ويغنـــي: قـــد آن لـــي أن أخلـــى

فتفـــضل بـــه علـــي لأنـــي ... لـــست إلا بمثلـــه أتـــسلى[1]

أما القطعة الأولى ففيها استرجاع للكتاب وإن لم يكن بذله على سبيل الاستعارة، ويلفت النظر فيها أنها تعتمد الفضاء التخييلي للنكاح في صور متسلسلة، مزجت بين الصور الحسية التي يشبه فيها الكتاب بالفتاة التي حملها زوجها واستحل حرمتها والصورة المعنوية في البيت الأخير، حيث جعل الكتب تعالج الغربة، وطول البعد، وهذا يشير إلى سمو الإحساس الذي يشعر به صاحب الكتاب تجاه كتابه، فهو لا يحبه ويشتاق إليه فحسب، بل يظن أن الكتاب يحبه أيضا ويشتاق إليه !، وأن للكتاب منزلا ووطنا يأنس فيهما، ويستوحش إذا ابتعد عنهما، إنها رابطة عاطفية بين الإنسان والكتاب لا نكاد نجدها لغيره من الجمادات.

وأما القطعة الثانية فتستغل فضاء (الصداقة والمنادمة) وهو الفضاء الثاني من فضاءات الحب، ونجد أن معجم الصداقة والمنادمة مبثوث في كافة أبيات هذه القطعة: (أشكو، نديم، السرور، مؤنساً، يسلي، همومي، بأحاديث، ويغني، أتسلى).

---

(١) الكلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صنعة الكلام: في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ، ٥٢-٥٣. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٥٣٧. الكتبي، فوات الوفيات، ٢/ ١٧٨.

هاتان القطعتان أنموذج من قطع متكاثرة يجمع بينها أن معانيها تكاد تعادل المعنى الغزلي: استزارة المحبوبة، واستبطاءها، وحثها على إنجاز ما وعدت به مما يخفّف من شوق المحب.

٢.٢. وصف المكتبات والمكاثرة بالكتب:

من القول في الكتب وصفُ المكتبات وصفا مادحا، وافتخار الشاعر بمكتبته وما تحويه من النوادر، أو القول في ضد ذلك، ومنه أن أمين الدولة بن التلميذ (ت٥٦٠هـ) لما اجتاز بساوة دخل إلى دار كتبها التي وقفها موفق الدين أبي طاهر بن الحسين بن محمد (ت؟) فقال فيها من قطعة: (من المنسرح)

وفّقت للخير إذ عممت به ... طلابه يا موفق الدين

أزلفت للناس جنة جمعت ... عيون فضل أشهى من العِين[1]

ومنه أيضا أن المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ) أنشأ في داره خزانة كتب زينها بأشعار مكتوبة على جهاتها الأربع، منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل (ت ٦٦٩هـ): (من الكامل)

أنشا الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارها

تجلو عروسا من غرائب حسنها ... درٌّ الفضائل والعلوم نثارها[2]

يجمع بين القطعتين ـ سوى وصفهما للمكتبتين، ومدح صاحبيهما، وذكر سيرورة ذكرهما ـ أنهما تستخدمان الفضاء التخييلي للغزل !. فالقطعة الأولى فيها تفضيل عيون

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٣٧١.

(٢) الحوادث، لمؤلف من القرن الثامن الهجري، وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب إلى ابن الفوطي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، و د.عماد عبدالسلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢١٣.

الكتب على الحسناوات (العِين)، واستخدم لذلك أفعل التفضيل: (أشهى)، ويحيل ذلك على معجم اللذة والمتعة، وهو تفضيل من جهة الشهوة لا يستدني مثله العقل حين يفكّر في الكتب، إذ إن تعامل الإنسان مع الكتاب في الواقع لا يكون من هذه الجهة، وذلك يثبت الارتباط عاطفيا بين الإنسان والكتاب، وربطه في المخيال الشعري بالمرأة الفاتنة، أما القطعة الثانية فشبه فيها الكتاب بالعروس على سبيل الاستعارة التصريحية، وشبه العلوم فيها بالنثار الذي يلقى على العروس، وقد غضضت النظر عما في القطعتين من تهافت ؛ وإنما استشهدت بهما مقتنصا هذه الرابطة بين الكتاب والحسناء، المحيلة على فضاء (الحب والغزل)، وتتضاعف دلالة ورود ذلك الفضاء إذا تذكرنا أن القطعتين قيلتا في سياق متمحض للجد، وأنهما تميلان إلى المدح، فهما أبعد ما تكونان عن اللهو وفضاءاته، وعلى ذلك لم تنعتق الأخيلة المستخدمة للكتاب فيهما من ثيمة الحب، فكأن الفضاء التخييلي للغزل صار فضاءً تخييليا أصيلا للكتاب، وهو ما لحظناه في أكثر من موضع في هذا البحث.

ومن افتخار الشعراء بجمعهم الكتب وشغفهم بها قول محمد بن سلامة المقرئ (ت ٤٥٤هـ): (من البسيط)

إني لما أنا فيه من منافستي ... فيما شغفت به من هذه الكتب

لقد علمت بأن الموت يدركني ... من قبل أن ينقضي من حبها أربي[1]

تصرّح هذه النتفة بـ(الشغف والحب) واجتهد صاحبها في إثباتهما، وقد استخدم لفظة (المنافسة) التي تشير إلى دافع نفسي وراء جمعهم تلك الكتب هو أنهم يتنافسون بينهم ،كل يريد أن يحوز قصب السبق، ويظفر بما ليس عند غيره، إنها أشبه بالهواية التي يثبتون بها ذواتهم، وتفوّقهم على أقرانهم، فصار الحب وسيلة لإثبات الذات، وصار الكتاب حجة تثبت انتماء عاشقه إلى أهل العلم، فكأنّما يرفع الإنسان قدره

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء،١٣/١.

ويعرّف نفسه بوسيلة الكتب وحبها ؛ وعلى هذا ينقلب حب الكتاب إلى حب الذات، فلا يكون الكتاب معشوقا إلا بمقدار ما يشبع نرجسية صاحبه.

وقد أحدثت هذه (المنافسة) في التكاثر نصوصاً ـ بلغ ما جمعته منها ثمانية وثلاثين بيتا ـ في ذم الاشتغال بجمع الكتب دون حقيقة التعلم، وإذا سلّمنا بالمعاني الظاهرة لهذه النصوص من تعظيم للعلم ذاته، واستياء من الانشغال بقشوره[1] فإننا لا نعدم الإشارات التي تدل على أن من تلك النصوص ما كان نتاج الانهزام في المنافسة على التكاثر، ثم ادعاء أن القيمة الحقيقية هي فيما يتقنونه من العلم لا في تلك المظاهر، يقول كشاجم من قصيدة: (من مجزوء الكامل)

يا من يكاثر بالدفاتر ... تحشو بها حشو المُساوِر

لو كنت أجمع غير ما ... يُختار من غرر النوادر

لجمعت ما لا يستقلْ ... لُ بحملهِ كُوْمُ الأباعر

واعلم بأن العِلم ما ... أوعيت في صحف الضمائر[2]

إن العلم ليس ما يكتب في كتاب، بل ما يكتب في الضمير، وإن هذا التهوين من الكتاب لا يؤخذ على حقيقته، فالشاعر أراد الرفع من شأن نفسه إذ رأى الآخرين اتخذوا (كثرة الكتب) معيارا من معايير رفعهم أهل العلم والأدب، أو وضعهم، ولم يرد أن يضام من هذه الجهة، فكان تهوينه من شأن الكتاب رفعاً لذاته وإعلاءً لشأنه، فقد غلب حبُّ الذات حبَّ الكتاب. وإن كلا الطرفين ـ المنتصر والمهزوم ـ جعل الكتاب وسيلة للافتخار بذاته ؛ إذ يلتقيان في انطلاقهما من حب الذات، ويهدفان إلى تفخيم الذات، بوساطة

---

(١) انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، ١/٥٩. الثعالبي، عبدالملك بن محمد، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: علاء عبدالوهاب محمد، دار الفضيلة، القاهرة، ٦٣ـ٦٤. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/٢٤٠. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٦/٢٦٤٥.

(٢) كشاجم، ديوانه، ١٣٢.

تفخيم شأن الكتاب بادعاء حبه، أو التهوين من شأنه بادعاء أنه عرضٌ لجوهر العلم، ومن هذا أقول: إنه لم يغلب حبَّ الكتاب شيء إلا حب الذات!، ولا غرو، فما كان حبٌّ الكتاب إلا نتيجة حب الذات !.

ومما يشير في هذا النص إلى اندراجه في تلك الروح التنافسية استخدامه لفظة (المساور) والمساورة هي الحدة والمواثبة والمقاتلة، ولعلهم كانوا يحتشون تحت ثيابهم في المساورة ما يقيهم أذى الضربات، ومهما يكن من أمر فإن ما يعنينا هو أن هذه الكلمة ما وردت هنا إلا لأن المساورة /المنافسة كانت من بواعث القول، بل إن هذه المساورة قد تبلغ حد إتلاف الكتب أو إحراقها، فلا يكون جواب صاحبها المتألم إلا ادعاء أن العلم ليس فيها، والتهوين منها تهوينا لا يقوله صاحب الكتب ـ المفجوع بها الذي يحبها ـ لو لم يدفع إليه دفعا، منه قول ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) حين أحرق ابن عباد (ت٤٨٨هـ) كتبه !: (من الطويل)

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي	تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي	وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ	وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأةً	فكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

ولقد منعته المساورة والمنافسة من التفجع على كتبه وإظهار حبها بادعاء أنه أكبر منها، وأن قيمته في ذاته، وليست في تلك الكتب، ولكننا لا نفقد إشارات اللوعة وحب الكتاب في هذه القطعة، إذ تبدّت في تكراره مرادفات كلمة الكتاب (القرطاس، القرطاس، رق، كاغد)، وذكره (الدفن والقبر) وكأنه مشاعر الرثاء التي تضغط على روحه الشاعرة تتفلّت ألفاظها من حيث لم يرد.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٦٥٧

وفي غمرة هذه المعاني المشحونة بالتدافع بين حب الكتاب وحب الذات لا نفقد حضور فضاء الحب والغزل في المعجم الشعري وفي الأخيلة، يقول الحسن بن أحمد بن معقل الأزدي (ت؟) واصفا مكتبة لا ينتفع بها صاحبها من قطعة: (من البسيط)

بـــل إنـــه معجـــب فيهـــا ومقتنـــع مـن علـم باطنهـا بالظـاهر الحـسن[1]

وإن وصف هذا الرجل المكتفي من الكتب بحسن ظواهرها لينظر من طرف خفيّ إلى صورة الرجل الذي يُخْتَدَعُ بالمرأة (خضراء الدمن)، ولا يفتش الباطن ولا يعنيه أمره.

قدّمت موضوعين من الموضوعات الشعرية الخاصة بالكتاب، وثمّة موضوعات أخرى سأعرض عن التمثيل لها وتحليلها ؛ جنوحا إلى الإيجاز ؛ ولأن نصوصها لا تبلغ عددا ما بلغه ما استشهدت عليه من موضوعات، منها القول في وصف سوق الكتب[2] والحث على كتابة الكتب، وفيه معانٍ لطيفة، وأخيلة تذكر (إلقاح) الأفكار والخواطر، وتشبّه الكتب بـ(النسل) [3]، والقول في ضرورة تصحيح الكتب قبل نشرها[4]، والقول في سرقة الكتب، ومنه السرقة العلمية[5].

* * *

(١) السمعاني، عبدالكريم بن محمد، أدب الإملاء والاستملاء، نسخة معتمدة على طبعة بتحقيق: ماكس فايسفايلر، دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، ١٤٧.

(٢) انظر مثلا: الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤/ ٤٢٧. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٢٥.

(٣) انظر مثلا: الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، ٨١. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١١٩. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٧٠.

(٤) انظر مثلا: تميم بن المعز، ديوانه، ٣١٠. الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٣/ ٢٣٦. الكتبي، فوات الوفيات، ٤/ ٣٣٤. الحافظ السلفي، معجم السفر، ١٦٥-١٦٦.

(٥) انظر مثلا: الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤/ ٣٩٥. الأصبهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء بلاد العجم، تحقيق: د. عدنان محمد الطعمة، مرآة التراث، طهران، ط١، ١٤١٩هـ، ١/ ٢١٠. علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٣هـ، ٩٩. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١/ ٣٧٩.

وأختم هذا البحث مصدّقاً ما افترضته قبل البحث من أن عامة الشعر المقول في الكتاب على اختلاف موضوعاته إنما انبعث من عاطفة الحب للكتاب، ففشت فيه ثيمة (الحب)، وظهرت لأداء معانٍ لا يتوقّع ظهورها فيها.

كما أن كثرة الموضوعات المقولة في الكتاب تدل على تلك العاطفة التي تربط بين الإنسان والكتاب حتى إنه يقول فيه الشعر كل حين.

وقد تبيّن في النصوص المستشهد بها ـ من خلال معجمها وأخيلتها ـ أن الكتاب معادل موضوعي للإنسان وبخاصة المرأة الحبيبة، حتى كثرت في وصف الكتاب الألفاظ التي تنتمي إلى حقل العلاقة المعنوية والحسية الجسدية بين المحب والمحبوب مثل: (الحب، العشق، الأبكار، العرس، التقبيل، اللذة، الضمّ، الإلقاح، النتاج). ولئن كانت للكتابة في المخيال الشعري صلة وثقى بالزرع بما فيه من حرث ـ ومن معاني الحرث في اللغة التفتيش ودرس الكتب وتدبرها. وإلقاح، ونتاج... فإن هذا المعجم المشترك المستمد من (الجنس) دال على أن (الكتاب والزرع) قرينان في المدنية والاستقرار وبقاء الجنس البشري وتطوره، فالجنس وسيلة بقاء الإنسان وتناسله، والإنسان نزّاع بطبعه إلى الاستقرار، وإلى تعزيز ذلك البقاء ؛ والاستقرار من لوازمه (الحرث) في الحقل و(الحرث) في الكتب، وذلك كـ(الحرث) طلبَ النسل !. ومن هنا يسهم هذا الشعر من الناحية الرمزية في تعميق مؤسسة الكتابة بما هي مؤسسة مدنية تبني عقلا تأليفيا تجريبيا ـ مباينا للعقل الشفوي القديم ـ يقبل الاستقراء والإنشاء وتثبيت المعرفة بصفتها جميعها معالم الحضارة الباقية.

وإن معجم الحب بأخيلته ما نشأ واستقرّ وتطور من العلاقة المعنوية المحضة (كالحب والوجد والشوق) إلى العلاقة الحسية إلا لعمق الصلة بين صاحب الكتاب وكتابه، حتى إنه ينعزل إليه عن الناس، ويستعيض به عن كل العلاقات الاجتماعية مهما كانت أهميتها، ويظهر في بعض النصوص احتجاج الشاعر على المجتمع بنبذه إياهم، واتخاذ الكتب وما فيها مجتمعا له دونهم.

وأشير إلى تفاوت الجودة الفنية في تلك النصوص، إذ تنحدر أحيانا حتى تكون نظما خالصا، وترتفع أحيانا فتبلغ حقيقة الشعر، وما ذاك إلا لأن القول في الكتب لم يقتصر على علية الشعراء كابن الرومي وابن المعتز وكشاجم بل رأينا نفرا من العلماء قالوا الشعر فيها ومنهم ـ كما تقدم ـ الفارابي وابن حزم، وضعف النظم عند غير الشعراء كان قوّةً داعمةً لافتراض (باعث الحب)؛ إذ لولا ذلك الحب لما جرى الشعر على ألسن كثير من غير الشعراء.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع:

١- إبراهيم بن محمد أبانمي، هجاء غير الإنسان في شعر المشرق من القرن الثاني إلى نهاية القرن السابع: موضوعات الهجاء ومحركات القول وخصائصه، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م.

٢- د.أحمد بن عبدالله الباتلي، علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت: لطائف وأخبار، دار طويق، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣- الأزهري، محمد بن عبدالله، مستوفى الدواوين، تحقيق: زينب القوصي و وفاء الأعصر (إشراف: د. حسين نصار)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ.

٤- الأصبهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر ـ القسم العراقي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، الجزء الثالث نَشَرَتهُ: وزارة الإعلام /سلسلة كتب التراث، العراق،ج٣، ١٩٧٦م ، ج٤، ١٩٧٣م / قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين وآخرَين، دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث)، ١٤٢٦هـ، طبعة مصورة عن طبعة ١٩٥١م / قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي / المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٥هـ / قسم شعراء بلاد العجم، تحقيق: د. عدنان محمد الطعمة، مرآة التراث، طهران، ط١، ١٤١٩هـ.

٥- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د.نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٦- الباخرزي، علي بن الحسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: د.محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٧- البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب ٦١)، القاهرة، ١٩٩١م.

٨- تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ديوانه، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ.

٩- الثعالبي، عبدالملك بن محمد، خاص الخاص، تحقيق: د. صادق النقوي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٤٠٥هـ، ٦٢٤-٦٢٥.

١٠- تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: علاء عبدالوهاب محمد، دار الفضيلة، القاهرة .

١١- تتمة يتيمة الدهر، شرح وتحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٣- الجاحظ. عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤- جحظة البرمكي، ديوانه، تحقيق: جان عبدالله توما، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٥- جميل بن مصطفى بك العظم، الصُّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات، اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٦- الحافظ السلفي. أبو طاهر أحمد بن محمد، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٧- الحافظ اليغموري. أبو المحاسن يوسف، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تحقيق: رودلف زلهايم، دار النشر: فرانتس شتاينر، فيسبادن، ١٣٨٤هـ.

١٨- ابن حمدون. محمد بن الحسن، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٩- خالد بن عبدالرحمن الشنو، مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ.

٢٠- الخطيب البغدادي. أحمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية.

٢١- الخطيب التبريزي، الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٢- ابن خلكان. شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥م.

٢٣- ابن دانيال. شمس الدين محمد، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: الإمام صلاح الدين ايبك الصفدي، تحقيق: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ.

٢٤- الراغب الأصفهاني. الحسين بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد. دار صادر، بيروت. ط١. ١٤٢٥هـ.

٢٥- ابن رشيق القيرواني. العمدة في صناعة الشعر ونقده. تحقيق: د.النبوي عبدالواحد شعلان. مكتبة الخانجي .القاهرة. ط١. ١٤٢٠هـ.

٢٦- ابن الرومي. علي بن العباس. ديوانه. تحقيق: د. حسين نصار. دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة. ط٣. ١٤٢٤هـ.

٢٧- الزمخشري. محمود بن عمر. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق: د. سليم النعيمي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. إحياء التراث الإسلامي. العراق. ١٩٧٦م.

٢٨- سبط ابن التعاويذي. ديوانه. تحقيق: د. س. مرجليوث. دار صادر. بيروت. (مصورة من طبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣م).

٢٩- السراج. جعفر بن أحمد ابن الحسين. مصارع العشاق. مطبعة الجوائب. الآستانة. ١٣٠٢هـ.

٣٠- السري الرفاء. ديوانه. شرح: كرم البستاني. مراجعة: ناهد جعفر. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٦م. ٢٨٦.

٣١- ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب. تحقيق: د. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط٣.

٣٢- السمعاني. عبدالكريم بن محمد. أدب الإملاء والاستملاء. نسخة معتمدة على طبعة بتحقيق: ماكس فايسفايلر. دار الباز. مكة المكرمة. ودار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٠١هـ.

٣٣- الصاحب بن عباد. ديوانه. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. دار القلم ببيروت ومكتبة النهضة ببيروت وبغداد. ط٢. ١٣٩٤هـ.

٣٤- أ.د. صالح بن الهادي رمضان. الخطاب الأدبي وتحديات المنهج. نادي أبها الأدبي. أبها. ط١. ١٤٣١هـ.

٣٥- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. الغيث المسجم في شرح لامية العجم. المطبعة الأزهرية المصرية. ط١. ١٣٠٥هـ.

٣٦- الوافي بالوفيات (نسخة مصورة). تحقيق: هلموت ريتر وآخرين. دار النشر فرانز شتاينر. شتوتغارت. ج٥. ط٣. ١٤١١هـ. ج١١. ط ١٤٠٥هـ.

٣٧- ابن طباطبا، شعر ابن طباطبا العلوي، جمع وتحقيق: جابر الخاقاني، منشورات: اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ـ دار الحرية، بغداد.

٣٨- الطرطوشي، محمد بن محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ١٢٨٩هـ.

٣٩- العاملي، بهاء الدين محمد، المخلاة، نسقه وفهرسه ووضع هوامشه: محمد خليل الباشا، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٤٠- عبدالرحمن يوسف الفرحان، عشاق الكتب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤١- د.عبدالكريم حسن، المنهج الموضوعي: نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٤٢- الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٤٣- عبدالله الحبشي، الكتاب في الحضارة الإسلامية، شركة الربيعان للنشر، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

٤٤- علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٣هـ.

٤٥- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق: د. محمد زغلول سلّام و د. مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، القاهرة.

٤٦- ابن عنين، محمد بن نصر، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢.

٤٧- القرطبي، يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، إدارة الطبعة المنيرية، مصر.

٤٨- القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

٤٩- ابن قلاقس، ديوانه، تحقيق د.سهام الفريح، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٥٠- الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

٥١- كشاجم. محمود بن الحسين، ديوانه، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٥٢- الكلاعي. محمد بن عبدالغفور، إحكام صنعة الكلام: في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٥٣- المحبي. محمد أمين، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ ٢١٣/١.

٥٤- محمد خير رمضان يوسف، آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

٥٥- الغرر على الطرر: غرر الفوائد على طرر المخطوطات والنوادر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٥٦- محمد عبدالجواد الأصمعي، تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب في العصور الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

٥٧- د.محمد كمال الدين عز الدين، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٥٨- د. مزهر السوداني، جحظة البرمكي الأديب الشاعر، (يحتوي الكتاب على مجموع شعره)، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٩٧هـ.

٥٩- ابن المعتز. أبو العباس عبدالله، ديوانه، صنعة: أبي بكر محمد الصولي، تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٦٠- ناصر الحزيمي، حرق الكتب في التراث العربي، دار الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠٠٣م.

٦١- أبو نواس. الحسن بن هانئ، ديوانه، تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٦٢- د. هاشم فرحات و د.محمود سيد محمود يوسف، قالوا في الكتاب، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٣هـ.

٦٣- ابن الهبارية، شعره، جمع وتحقيق: د. محمد فائز سنكري طرابيشي، وزارة الثقافة (إحياء التراث العربي)، دمشق، ١٩٩٧م.

٦٤- أبو هلال العسكري. الحسن بن عبدالله، ديوانه، تحقيق: د. جورج قنازع. المطبعة التعاونية، دمشق، ١٤٠٠هـ.

٦٥- ديوان المعاني، تحقيق: أحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

٦٦- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٦٧- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

٦٨- د.يحيى وهيب الجبوري، بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

٦٩- الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٧٠- مجموعة من الكتّاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: د. رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٧هـ.

٧١- اليزدي. أحمد بن محمد بن جعفر، جزء فيه عاريّة الكتب، ملحق بكتاب: آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

٧٢- الحوادث، لمؤلف من القرن الثامن الهجري، وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب إلى ابن الفوطي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، و د.عماد عبدالسلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

* * *